غابرييل غارسيا ماركيز

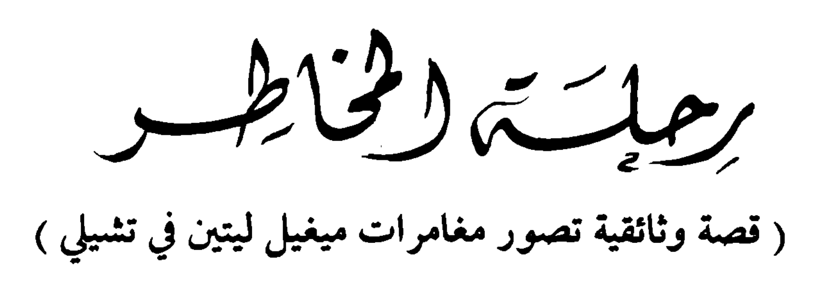


رحلة المخاطر

قصّة وثائقيّة تصور مغامرات ميغيل ليتين في تشيلي

ترجمة : د. هاشم حمادي

غابرييل غارسيا ماركيز



(قصة وثائقية تصور مغامرات ميغيل ليتين في تشيلي)

ترجمة : الدكتور هاشم حمادي

رحلة الخاطر

طبع من هذا الكتاب ٢٠٠٠ نسخة
في مطبعـــة

منشورات دار مجلة الثقافة
دمشق

في بداية ١٩٨٥ قام المخرج التشيلي ميغيل ليتين ، المدرج اسمه في قائمة الخمسة آلاف منفي ، والمحظر عليهم العودة الى وطنهم بشكل مطلق ، بزيارة تشيلي متنكرا ، حيث أمضى فيها ستة أسابيع والتقط أكثر من سبعة آلاف متر من الشريط السينمائي ، صور فيها واقع وطنه ، بعد اثني عشر عاما من وصول الديكتاتورية العسكرية الى السلطة . وقد استطاع ليتين ، عن طريق تغيير شكله وزيه وطريقة حديثه ، واستخدام الوثائق المزورة ، وبالاعتماد على معونة التنظيمات الديمقراطية ، التي تعمل في تشيلي طي الخفاء ، أن يشرف على العمل ، الذي كانت تقوم به ثلاث مجموعات تصوير أجنبية . وصلت تشيلي بذرائع مختلفة ، وست مجموعات سينمائية شبيبية في المقاومة التشيلية ، وكان عمل هذه المجموعات التسع يجري في مختلف أنحاء البلاد .

حينما حدثني ميغيل ليتين في مدريد عن الظروف التي أحاطت بعملية التصوير خطر لي أن وراء فلمه فلما آخر ، لم يصور ، قصة أخرى يمكن أن يطويها النسيان وقد وافق على اقتراحي في الاجابة على تحقيقي ، الذي استغرق قرابة اسبوع ، والذي احتاج تسجيله الى ثماني عشرة ساعة تسجيل . وهكذا فقد تبينت كل معالم هذه القصة ، بكل جزئياتها وتفاصيلها ، وتعقيدات الطابع المهني والسياسي ، وها

أنا أرويها في قالب مختصر .

ان بعض الأسماء هنا مستعارة ، وبعض الاحداث مشوهة بشكل متعمد ، كي لا يجر ذلك الضرر على اولئك الباقين في تشيلي . وقد فضلت رواية القصة بضمير المتكلم ، كما رواها ليتين ، بهدف الحفاظ على لهجته المميزة ، المشوقة أحيانا ، ولكن البعيدة عن الدرامية الرخيصة ، والتنطح للأهمية التاريخية ، ومن البدهي أن اسلوب النص النهائي هو أسلوبي أنا ، لأن صوت الكاتب غير قابل للاستبدال ، سيما وانني اضطررت الى ضغط حوالي ٦٠٠ صفحة في اقل من ١٥٠ صفحة .

ان هذا الكتاب ، من حيث طبيعة مادته ، عبارة عن تحقيق ، ولكن ليس مجرد تحقيق ، بل انه تصوير عاطفي للظروف ، التي احاطت بتلك الرحلة ، المحفوفة بالمخاطر في كل لحظة وفي كل خطوة . والتي كان هدفها النهائي اكثر عمقا وتأثيرا من مجرد محاولة تصوير فلم تحت سمع وبصر النظام الديكتاتوري التنكيلي ، يقول ليتين : ليس هذا اكثر تصرفاتي بطولة ، ولكنه اكثرها مدعاة للاعتزاز . وبالفعل فان عظمتها تكمن هنا بالذات .

غ . غ . ماركيز

الفصل الأول

التحول الى مومياء

كانت طائرة شركة « لاديكو » ، التي أقلعت من أسونسون (الباراغواي) في الرحلة رقم ١١٥ ، تستعد للهبوط في مطار سانتياغو ، بعد تأخير يزيد على الساعة . وكان جبل اكونكاغوا ، الذي يبدو من اليسار ، والذي يقارب ارتفاعه السبعة كيلومترات ، يذكرك ، وهو يستحم في ضوء القمر ، بكتلة عملاقة من الفولاذ ، مالت الطائرة بخفة مخيفة على جناحها الأيسر ، ومن ثم استعادت توازنها ، وتردد صرير معدني رهيب . واذ لامست الأرض قبل الوقت المحدد قفزت ثلاث مرات ، لكأنها حيوان الكونغر . وقد وجدت نفسي ، أنا ميغيل ليتين ، ابن ايرنان وكريستينا ، أحد التشيليين الخمسة آلاف ، المحظر عليهم دخول البلاد ، أطأ تراب وطني بعد اثني عشر عاما من النفي . وبشكل عام فقد بقيت أشعر انني ما زلت منفيا : فقد وصلت بشخصية مزيفة ، وبجواز سفر مزور ، وحتى برفقة زوجة مزيفة ، وكان وجهي وشكلي كله قد تغيرا بسبب الثياب والماكياج لدرجة أن والدتي لم تتعرف علي بعد ذلك بعدة أيام ، وفي وضح النهار .

- ١ -

السر الذي لم يعرفه الا الله

اشخاص معدودون فقط كانوا مطلعين على سري . ومن بينهم امرأة شابة ، غاية في الجاذبية ، كانت تطير في الطائرة اياها . كانت تدعى ايلينا . وهي عضو في حركة المقاومة التشيلية ، وقد ارسلتها منظمتها كعنصر ارتباط مع الشبكة السرية الداخلية ، ولاقامة الصلات السرية وتحديد الاماكن المناسبة للقاءات ، وتقويم الموقف التعبوي ، والاتفاق على اللقاءات ، والسهر على أمننا وسلامتنا . وفي حال اكتشاف الشرطة أمري ، او اختفائي ، او في حال عدم الاتصال خلال ٢٤ ساعة ، كما تم الاتفاق مسبقا ، كان عليها ان تعلن نبأ قدومي الى تشيلي على الملأ ، كي تقرع أجراس الخطر في العالم . وعلى الرغم من أن الوثائق لم تكن تشير الى أية صلة تربطنا ، نحن الاثنين ، فاننا لم نفارق بعضنا مذ غادرنا مدريد . حيث مررنا معا بسبعة مطارات ، وقطعنا قرابة نصف العالم ، لكأننا زوج وزوجة لا غبار عليهما . بيد أننا في المرحلة الاخيرة من الطريق ، وقبل وصولنا بساعة ونصف ، قررنا ان نجلس بعيدا عن بعضنا ، ونغادر الطائرة ، وكأن أحدنا لا يعرف الآخر، وكنا قد اتفقنا على أن تجتاز ايلينا مراقبة الهجرة والجوازات بعد أن أجتازها . وذلك كي تحذر من يلزم ، في حال حدوث مالا تحمد عقباه . وفي حال انتهاء كل شيء على خير نعود ، لدى مغادرة مبنى المطار ، زوجا وزوجة عاديين .

على الورق كانت خططنا تبدو في منتهى البساطة ، ولكن تنفيذها عمليا كان محفوفا بمخاطرة كبيرة : فالموضوع يدور حول القيام ، تحت غطاء من السرية ، بتصوير فلم وثائقي حول الواقع التشيلي بعد اثني عشر عاما من تسلم الديكتاتورية العسكرية مقاليد الحكم في البلاد. والواقع أن هذه الفكرة كانت تقض مضجعي منذ عهد بعيد . ولكن امكانية ترجمة هذا المشروع إلى حيز الواقع جاءت بمحض المصادفة تقريبا . وفي الوقت الذي لم اكن انتظرها فمنذ عامين فقدت آخر أمل لي في ذلك .

حدث ذلك في خريف ١٩٨٤ في مدينة سان سيباستيان الباسكية ، وكنت قد وصلت هذه المدينة قبل نصف عام مع زوجتي ايلي واولادنا الثلاثة لتصوير فلم روائي . وفي ذات مرة ، وبينما كنت أتناول العشاء مع الاصدقاء في احد المطاعم المعروفة ، كان ذلك في فترة مهرجان سينمائي - تحدثت من جديد عن حلمي القديم . وقد أصغوا إلي بكل اهتمام ، وبكل حيوية نوقش مشروعي هذا ، الذي استحوذ على الاهتمام ، ليس فقط بسبب توجهه السياسي ، بل وبامكانية تقويض الاسطورة حول عظمة بينوشيت ، وقدرته الخارقة. ولكن أحدا لم يتبن هذا المشروع إلا كجموح خيال مهاجر ، شده الحنين الى وطنه ، وبينما كنا في طريقنا الى البيت عند الفجر ، ونحن نقطع شوارع المدينة الغافية ، اقترب مني المخرج الايطالي لوتشيانو بالدوتشي ، الذي لم يكد يدلي بدلوه في الحديث على المائدة ، ثم تأبط يدي ، وانتحى بي جانبا ، وكانه لا يقصد ذلك ، وهو يقول :

- إن من تحتاج اليه ينتظرك في باريس .

وهذا ما كان بالفعل ، فقد كان الانسان الذي أحتاجه يحتل منصبا رفيعا في المقاومة التشيلية ، وكانت خطته لا تختلف عن خطتي إلا في بعض التفصيلات الشكلية . ولم يتطلب الأمر إلا أربع ساعات من الحديث لتجسيد الأمل الذي ظل يراودني بكل تفاصيله وجزئياته ، ويقض مضجعي في ليالي المنفى الثقيلة .

كخطوة أولى كان لا بد من ادخال مجموعات التصوير الاساسية الثلاث الى تشيلي : الايطالية . الفرنسية وثالثة من إحدى البلدان الاوربية أيضاً، على ان يزود افرادها بوثائق هولندية. وكان على هذه المجموعات الثلاث اجتياز الحدود بشكل قانوني ، بموجب سماح رسمي . مستخدمة ، كما هي العادة في مثل هذه الحالات ، مساعدة سفاراتها . وكان على المجموعة الايطالية ، التي وضعناها تحت اشراف احدى الصحفيات ، أن تتظاهر أنها تقوم بتصوير فلم وثائقي عن المهاجرين الايطاليين في تشيلي ، مع التركيز بشكل خاص على ابداع هواكين تويسكي ، المهندس المعماري ، الذي بنى قصر لامونيد[1] (الرئاسي) ، بينما كان على الفرنسيين الحصول على السماح بتصوير شريط ايقولوغي من البيئة التشيلية . وكان على المجموعة الثالثة أن تقوم ـ اسميا ـ باعداد فلم عن الزلازل الأخيرة التي خربت البلاد. بحيث تكون كل مجموعة لا تعرف شيئا عن وجود المجموعتين الأخريين ، وبحيث لا يراود أحد اعضائها الشك في حقيقة ما يراد منه ،ولا في هوية الجهة المشرفة على المشروع ، باستثناء رئيس كل مجموعة ، ويشترط فيه أن يكون محترفاً ، معروفاً في

وسطه . مثقفاً ، سياسياً ، ويعي مدى خطورة المركب الذي ركب .
كان هذا الجزء من الخطة هو الأسهل ، وعلى جناح السرعة سافرت الى البلدان ، التي كان يجب أن تنطلق منها المجموعات السينمائية .
وفي تلك الامسية التي وصلت فيها سانتياغو كانت كل المجموعات موجودة في تشيلي ، ولديها العقود اللازمة ، وهي بانتظار التعليمات .

ـ ٢ ـ

دراما تقمص شخصية أخرى

كان الشيء الاصعب بالنسبة لي فعلا هو التحول الى إنسان آخر ، ان تغيير الشخصية مرتبط بالكفاح اليومي ، حيث لا تكف عن التصدي لعزمك على التغير ، وتريد أن تبقى كما أنت . وهكذا فان الصعوبة الرئيسية لم تكن تكمن في تقمص الشخصية الغريبة عني ، كما كان يفترض ، بل في مقاومتي غير الواعية ، ورفضي في اللا شعور أن أتغير ، إن في الشكل الجسماني ، أو في السلوك . كان علي أن أجبر نفسي على التحول من ذلك الانسان ، الذي كنت أبدا ، الى انسان آخر تماما ، لا يثير الشك والريبة لدى نفس البوليس التعسفي التنكيلي ، الذي اضطرني الى مغادرة وطني . والأكثر من هذا أن يكون التعرف علي غير ممكن ، حتى من قبل اصدقائي المقربين . وخلال أقل من ثلاثة اسابيع من العمل تمكن عالما نفس وخبيرة مكياج من الاستوديو السينمائي ، تحت اشراف خبير العمليات السرية الخاصة ، والذين جاءوا من تشيلي لهذا الغرض ، تمكنوا من تحقيق المعجزة ، من خلال قطع الطريق على محاولاتي الغريزية في البقاء كما أنا .

بدأنا من اللحية لم تكن الصعوبة في كيفية قصها، بل في كيفية الخروج من الشكل الذي كانت تعطيني اياه . كنت قد اطلقت لحيتي منذ أن كنت شابا ، حينما كنت أنوي انتاج أول فلم ، وفيما بعد

حلقتها أكثر من مرة ، ولكن لم يسبق لي أن قمت بالتصوير وأنا حليق الذقن ، كان يبدو وكأنها جزء من شخصيتي كمخرج .

وهكذا فان فراق اللحية للتسلل الى تشيلي لم يكن بالنسبة لي مجرد التسلح بالفرشاة والموسى ، بل كان يعني القيام بعملية أكثر عمقا - تغيير الهوية . كانوا يقصونها لي بالتدريج . شيئا فشيئاً ، مع رصد التغيرات في كل مرحلة . وكيف تنعكس على شكلي وشخصيتي ، الى أن أصبح خداي وذقني كما الركبة العارية . وقد مرت عدة أيام قبل أن أجرؤ على الاقتراب من المرآة .

ومن ثم جاء دور الشعر . فشعري أسود كما القطران ، وقد ورثته عن أمي اليونانية وأبي الفلسطيني ، الذي كان قد أهداني صلعا مبكراً ، في البداية صبغوا لي شعري باللون الكستنائي الفاتح . ومن ثم جربوا مختلف أشكال التسريحات ، ثم قرروا أن لا يعارضوا الطبيعة . وبدلا من تمويه الصلع ، كما كان مخططا في البداية تم ابرازه بشكل اكبر ، ليس فقط من خلال دفع الشعر الى الخلف ، بل وعن طريق تدمير جزء من الشوشة ، التي لم يكن العمر قد أتى عليها بعد .

ان هذا صعب التصديق ، ولكن ثمة بعض التقاطيع الصغيرة القادرة على تغيير حتى شكل الوجه . فقد أصبح بوزي ، الشبيه بالقمر بدرا ، حتى حينها أنحف . اكثر استطالة ، بعد أن نتفوا نهاية جفوني . والغريب انني اكتسبت شكلا اكثر شرقية مما كان لدي بالفطرة ، انه الشكل الذي يعتبر الاكثر تناسبا مع أصلي ، وكان الاجراء الاخير - ختامها مسك - النظارات ديوبتر ، والتي سبب لي

ارتداؤها في الايام الأولى وجعا قويا في رأسي . ولكن هذه النظارات لم تقتصر على أنها غيرت مقطع عيني ، بل وتعبيرهما أيضا .

أما تغيير الشكل العام فقد كان أكثر سهولة . ومع ذلك فقد تطلب مني ذلك توترا ذهنيا كبيرا . عمليا كان تغيير الوجه مسألة مكياج . بينما كان تغيير الشكل ككل يتطلب اعدادا نفسيا خاصا ، ودرجة عالية من التركيز . فهنا بالذات كان يجب أن ينعكس بكل عمق انتقالي الى طبقة اجتماعية أخرى . فبدلا من الجينز ، الذي لم يكن يفارقني ، وسترات الصيد التي اعتدت عليها . كان علي التآلف مع ارتداء الاطقم من القماش الانكليزي ، من أجود الماركات الاوربية ، والقمصان المخاطة حسب الطلب ، والأحذية المصنوعة من جلد الشموة ، وربطات العنق الايطالية المبرقشة ، وبدلا من لهجة الفلاح التشيلي التي تميزني ، والتي تتميز بسرعتها ، كان علي أن أتقن لهجة أحد اثرياء الاورغواي ، فقد اعتبرت هذه القومية الأفضل بالنسبة لشخصيتي الجديدة . كان علي أن أتعلم كيفية الضحك بطريقة جديدة ، تختلف عن تلك الخاصة بي ، واتقان السير الوئيد ، والاشارات المختلفة ، التي تعطي الكلمات قوة إقناع أكبر . أي أن لا أعود فقيرا ومخرجا سينمائيا متمردا ، كما كنت دائما ، وأن أتحول الى ذلك الانسان الذي هو آخر ما أرغب في أن اكونه في هذا العالم ! البرجوازي المغرور، أو كما يقال عندنا في تشيلي أن اتحول الى مومياء .

«اذا ما ضحكت وقعت»

شيئا فشيئا ، وأنا أتحول الى انسان آخر ، رحت أعتاد الحياة مع ايلينا في الشبـقة الواقعة في الحي السادس عشر من باريس ، ولأول مرة التزمت بالنظام المحدد مسبقا من قبل طرف آخر ، لم يكن هو أنا ، وبدأت الحمية الصارمة للتخلص من عشرة كيلو غرامات من وزني البالغ ٨٧ كغ ، ولم يقتصر الأمر على أن ذلك لم يكن منزلي . فهو لم يكن يشبهه لا من قريب أو بعيد ، بل وكان يجب أن ينطبع هكذا في ذاكرتي ، كي تتجسد هذه الذكريات ، تلافيا للتناقضات في ا لمستقبل . أما فيما يتعلق بإيلينا فقد وقع اختيار الخبراء عليها بفضل مستواها الرفيع من الاعداد المهني والسياسي . وكانت مهمتها تتضمن الحفاظ علي في أطر صارمة . وعدم السماح بأي تحليق على أجنحة الخيال .

لم تكن ثمة مشاكل للتحول أمام ايلينا . فهي تشيلية ، وعلى الرغم من أنها لم تكن تقطن في تشيلي خلال ا لسنوات الخمس عشرة الاخيرة بشكل دائم ، فانه لم يسبق أن تعرضت للنفي من البلاد ، ولا الى ملاحقة البوليس لها في اية دولة ، وهكذا فقد كان لا غبار على صفحتها وكم نفذت من مهام سياسة في البلدان المختلفة ، وللحال جذبتها فكرة تصوير فلم سرا في موطنها ، وكان وضعي أنا اكثر تعقيدا بكثير ، طالما أن الجنسية التي اعتبرت أكثر ملاءمة لي كانت

تضطرني ، لاسباب فنية ، الى صياغة سمات شخصية لدي . تختلف جذريا عما لدي ، واختراع خرافة عن ماضي في بلد لا أعرف عنه شيئا . ومع ذلك فقبل انتهاء الموعد المحدد للتدريبات كنت قد تعلمت الاستجابة فورا لدى سماع من يناديني باسمي الجديد ، واصبحت قادرا على الاجابة على اكثر الأسئلة تعقيدا حول عاصمة الاورغواي مونتيفيديو ، بدءا من رقم الباص ، الذي يمر بالقرب من منزلي ، وانتهاء بالتفاصيل من حياة زملائي السابقين في المدرسة رقم ١١ . التي تخرجنا منها منذ خمسة وعشرين ، والتي تقع في شارع ايطاليا ، على بعد حيين عن الصيدلية ، وعلى بعد حي واحد من السوبر ماركت الجديد . الشيء الوحيد الذي لم أنصح به هو الضحك ، لأن ضحكي مميز ، يمكن أن يفضحني على ا لرغم من كل هذا التمويه . وقد أثارت هذه الناحية قلق الجميع . لدرجة أن المشرف علي عملية تقمصي حذرني بكل جدية يستطيعها : «اذا ما ضحكت وقعت» .

ومن جديد ظهرت الشكوك حول امكانية تنفيذ خطتي . وكانت ناجمة عن الاعلان الجديد عن حالة الطوارىء في تشيلي . هكذا كانت ردة فعل الديكتاتورية ، التي جرحها فشل المغامرة الاقتصادية ، حسب وصفة «مدرسة شيكاغو» ميلتون فريدمان ، على أنشطة المعارضة المشتركة ، التي وقفت جبهة واحدة للمرة الأولى . كانت مظاهرات الاستنكار قد بدأت منذ أيار - مايو - ١٩٨٣ ، وكان صوت الشبيبة هو الأقوى في هذه المظاهرات ، التي استمرت حتى نهاية العام . وقد ردت السلطات على ذلك بالتنكيل الوحشي .

وقد نظمت قوات المعارضة - الشرعية منها والسرية - ، التي انضمت اليها لأول مرة الفئات الأكثر تقدمية في صفوف البرجوازية ، اضرابا شاملا لمدة يوم كامل ، جاء أصدق تعبير على قوتها والتزامها . وهذا ما أثار ثائرة الديكتاتورية ، التي سارعت إلى اعلان حالة الطواريء .

وبالطبع فان تصوير الفيلم في مثل هذه الظروف كان مغريا جدا ، ولكن ، من ناحية أخرى ، فقد كان من المتوقع أن تكون المراقبة البوليسية أكثر صرامة . . . والتنكيل أكثر قسوة ، ثم ان نظام منع التجول كان سيقلص زمن التصوير . ومع ذلك فقد ارتأت قوات المقاومة ، بعد وزن الوضع القائم من شتى جوانبه . أن لا نقف في منتصف الطريق ، وقد كنت من أنصار هذا الرأي . وهكذا ففي الوقت المحدد رفعنا الاشرعة ، وأقلعت بنا «السفينة» وكلنا أمل في أن يكون الطقس مناسبا ، والريح مواتية .

كانت أول تجربة قاسية لي هي اليوم الذي غادرنا فيه مطار مدريد . فمنذ أكثر من اسبوع لم أكن قد رأيت ايلي والأولاد : بونشي ، ميفيليتو وكاتالينا . حتى انني لم أتلق منهم أية أخبار مباشرة . وكان يسود بين المسؤولين عن سلامتي رأي مفاده أن علي أن أسافر دون أن احيطهم علما بذلك ، بهدف تجنب مشاهد الوداع . والأكثر من هذا أنه في بداية العمل في هذا المشروع كان يعتقد أن من الأفضل أن لاتعرف أسرتي الحقيقة، ولكن لم نلبث أن اقتنعنا أن هذا الاجراء عقيم ، فليس ثمة من يمكن أن يحمي مؤخراتي أفضل من ايلي ، إذ أن بوسعها ، من خلال التنقل بين مدريد وباريس ، بين باريس وروما وصولا الى بونيس آيرس ، أن تشرف ببراعة الخبير على

استلام المواد المصورة وتظهيرها ، تلك المواد ، التي سأرسلها ، على دفعات ، من تشيلي ، واذا ما دعت الحاجة - فجأة - الى العثور على وسائل اضافية ، فانها لا يمكن أن تعرف التسرع والارتباك . وهكذا قررنا .

أضف الى هذا أنه منذ الأيام الاولى للتحضير للعملية ، لفت انتباه ابنتي كاتالينا ظهور ثياب جديدة باستمرار في غرفة نومي ، والغريب أن هذه الثياب لا تناسب ذوقي ولا نمط حياتي ، وقد استبدت بها الحيرة والفضول ، لدرجة انني لم أجد مناصا من أن أطلع أهلي على خططي . وقد تقبلوا هذا الخبر بكل ابتهاج ، وللحال بدأوا يمدون لي يد العون . لكأنهم قد أحسوا بأنفسهم شخصيات في أحد أفلامي المنزلية . والتي كنا غالبا ما نشترك في اعداد السيناريو لها ، بهدف التسلية والامتاع . . ولكن لم يكادوا يرون في المطار هذا الاورغوائي المتدين ، الذي يكاد لا يمت لي بصلة ، حتى أدركوا ، وأدركت معهم ، أن هذا الفلم يقوم في أساسه على دراما من واقع الحياة ، في منتهى الجدية والخطر ، وتَمَسُّنا جميعا . ومع ذلك فقد كانت ردة الفعل لديهم بالاجماع :

المهم أن تعلق لبينوشيت ذيل حمار طويلاً ، وفي ذلك اشارة الى لعبة الاطفال ، التي يقوم فيها أحد اللاعبين والمعصوب العينين ، بوضع الذيل للحمار الكرتوني في المكان المناسب .

فقلت لهم مؤكدا ، وأنا أقصد شريط الفلم : أعدكم أنه سيكون بطول سبعة آلاف متر .

وبعد أسبوع هبطت في سانتياغو برفقة ايلينا .

ـ ٤ ـ

كادت روحي تصل أنفي

في البداية كانت الرحلة عبارة عن تطواف غير منتظم بين سبع مدن أوربية . هكذا خطط للعملية . كي أتآلف بالتدريج مع شكلي الجديد ، المدعم بجواز سفر لاغبار عليه . كان جواز سفر اورغوائيا فعلا . فيه اسم صاحبه الشرعي ، وكل المعلومات المتعلقة به ، وكان صاحبه هذا قد وضعه تحت تصرفنا لما يكنه لنا من إعجاب سياسي ، وكان يعرف جيداً بأن هذا الجواز سيزوّر ، وسيستخدم لدخول التشيلي . وكل مافي الأمر أننا استبدلنا صورته بصورتي ، بعد عملية التحويل وقد أصبحت كل حاجياتي تحمل اسم صاحب الجواز : المونوغرام المخاط على قمصاني ، الاحرف الاولى من اسمي على «الديبلومات» المونوغرام على بطاقات الزيارة وأوراق الكتابة ، وبعد عدة ساعات من التدرب أصبحت أوقع باسمي الجديد باحرف عريضة. ولضيق الوقت لم نستطع حل مشكلة سندات الاعتماد . كان ذلك تقصيراً خطيرا ، اذ يستحيل تفسير سلوك الانسان . الذي كنت اقوم بدوره ، والذي يقوم بمشتريات كبيرة ، عدة تذاكر طائرة ـ على سبيل المثال ـ ويدفع بالدولار نقدا .

كانت الحكاية التي ألفتها مع إيلينا تبدو لاغبار عليها : اننا نشرف على مكتب إعلاني في باريس ، وقد أتينا الى تشيلي مع مجموعة من المصورين ، لتصوير فلم إعلاني عن نوع من العطور الجديدة ،

التي ستطرح للبيع في آوربا في الخريف القادم . وقد وقع اختيارنا على التشيلي للتصوير ، باعتبارها واحدة من البلدان التي يمكن ان يعثر المرء فيها على الفصول الاربعة على مدار العام : بدءا من المسابح الحارة ، وانتهاء بالثلوج الابدية . كانت ايلينا ترتدي الزي الأوربي الغالي ، دون تكلف . لكأنها ليست تلك التي قدموها لي في باريس ، بشعر مسبل وتنورة اسكوتلندية وحذاء تدريب . وبدوري لم اكن متضايقا من قشرة رجل الأعمال ، الى أن شاهدت صورتي في واجهة مطار مدريد : طقم داكن صارم ، قبة قاسية . وربطة عنق . وبعبارة مختصرة انها صورة أحد الاقطاب الحقيقيين . حتى انني شعرت بالحرج : «ياللفظاعة ، إذن لو لم اكن أنا انا ، اذن لكنت شبيها بهذه المسطرة» . وفي تلك اللحظة لم يكن ثمة مايربطني بشخصيتي السابقة سوى ذلك المجلد المتآكل «الآثار الضائعة» القصة الرائعة لـ «أولينجو كاربينتير» ، الذي كان رفيقي الدائم في حلي وترحالي على مدى السنوات الخمس عشرة الاخيرة ؛ وذلك بهدف التغلب على مايعتلج في نفسي من مشاعر الخوف والرهبة من الطائرة . وفي هذه المرة عانيت الكثير أمام نوافذ مكاتب الهجرة والجوازات في مطارات البلدان المختلفة . فقد كان علي ، وأنا أبرز جوازي الغريب ، أن أتقن كبت الرجفة العصبية .

كان الموقف الاول في جنيف . وقد مر كل شيء على خير تماما ، ولكنني أعرف أنني لن أنسى تلك الكوة حتى نهاية حياتي . فقد تفحص موظف الهجرة جواز سفري باهتمام صفحة صفحة ، ومن ثم راح يتمعن في وجهي ويقارنه بالصورة . وقد وصلت روحي الى

انفي ، على الرغم من ان الصورة كانت الشيء الوحيد في هذا الجواز ، الذي يمت الي بصلة . وفيما بعد لم يتكرر مثل هذا الشعور ، حينما تصاب بالغثيان ، ويكاد قلبك يقفز من صدرك - حتى اللحظة التي انفتح فيها باب الطائرة على مصراعيه في مطار سانتياغو . في جو يخيم عليه صمت المقابر ، وأحسست بدفق تنهدات ذرى جبال الأند الجليدية تحتضنني . وعلى واجهة المبنى تطالعك العبارة التالية، التي كتبت بخط أزرق عريض : «تشيلي تسير إلى الامام في ظل النظام والسلام».ألقيت نظرة على الساعة : لم يبق على منع التجول سوى فترة قصيرة جدا .

حين فتح موظف مكتب الهجرة في تشيلي جواز سفري خامرني إحساس بأنه إذا مارفع رأسه ، ونظر الى عيني ، لاكتشف التزوير فورا . كان في مبنى المطار ثلاثة أماكن لفحص الجوازات ، وفي كل منها كان يجلس رجل في الزي المدني . وقد اخترت أفتى الثلاثة ، والذي بدا لي أنه كان يعمل أسرع من الآخرين . أما ايلينا فقد وقفت في طابور آخر . وتظاهرنا أننا لانعرف بعضنا ، بحيث اذا مااقتضح أمر أحدنا استطاع الآخر مغادرة المبنى بكل سهولة ، وايصال الخبر لمن يلزم . ولكن ذلك لم يحدث لأن الموظفين كانوا ، مثلهم مثل المسافرين ، في عجلة من أمرهم ، يريدون الانتهاء قبل أن يدركهم منع التجول ، فكانوا لاينظرون إلى الوثائق إلا لماما . أما ذلك الذي وقع اختياري عليه فلم يكلف نفسه حتى عناء النظر الى التأشيرة ، وذلك لأنها غير مطلوبة من الاوراغوائيين الجيران . واكتفى بوضع خاتم الدخول على أول صفحة صادفها .

ظهرت الحقائب بسرعة عير عاديه ، لاتحدث في اي مطار في العالم . لأن موظفي الجمارك كانوا ، بدورهم ، في عجلة من أمرهم ، فقد كانوا يريدون وصول منازلهم قبل بدء حظر التجول . أخذت حقيبتي ، وبعد أن عثرت على حقيبة ايلينا ـ كنا قد اتفقنا على أن أخرج قبلها ، ومعي الحقيبتان بهدف كسب الوقت ـ اتجهت الى منصة التفتيش الجمركي . ولما كان موظف الجمارك على عجل من أمره فقد كان بدل فحص محتويات الحقائب ، يستعجل أصحابها الخروج . ولم اكد اضع الحقيبتين على المنصة حتى سألني :

ـ هل جئت بمفردك ؟

فأجبته أنني جئت بمفردي . ألقى نظرة عاجلة على كلتا الحقيبتين ، ثم أوعز بسرعة : «حسنا . بامكانك الخروج» . ولكن في هذه اللحظة صاحت رئيسته ، وهي امرأة شقراء ، شبيهة بالرجال ، ترتدي الزي الرسمي ، ذي النطاقين المتصالبين ـ نموذج كلاسيكي للكيربير في تنورة ، ولم اكن قد لاحظتها في البداية ، صاحت من عمق الصالة : «فتشه !» . وفي هذه اللحظة فقط أدركت أنني لن أستطيع أن أفسر كيف ظهرت الحاجيات النسائية في أغراضي . وبينما راح الجمركي ينقب في ثيابي أخذت هي جواز سفري ، وراحت تتفحصه ، وهنا تذكرت السُكرة ، التي اعطوني إياها في الطائرة قبيل الهبوط ، فوضعتها في فمي لانني أدركت أن الأسئلة لن تلبث أن تطرح ، ولم أكن أشعر أنني واثق من قدرتي على إخفاء هويتي التشيلية وراء اللهجة الاوراغوئية الرديئة .

ـ هل ستبقى عندنا طويلا سنيور ؟

ـ مافيه الكفاية ، اجبتها ، وبدأ مفعول السكرة .

وحينذاك طلب مني الجمركي فتح الحقيبة الثانية ، ولكنها كانت مقفلة ، والمفتاح مع ايلينا ، التي كانت في الطابور أمام كوة الجوازات . فما العمل ؟ هل أقول أن الحقيبة ليست لي ؟ وفي هذه اللحظة أعادت الكيربير في التنورة جواز سفري ، وأوعزت للجمركي بالانصراف إلى الراكب التالي .

قطعت الصالة ، شبه الخاوية ، في اثر الحمال ، يدفع عربة الاغراض ، وعليها حقيبتاي . باتجاه المخرج . وفي الشارع كان بانتظاري أول اصطدام بالواقع بعد عودتي،وخلافا لما هو منتظر فلم تكن آثار العسكرية تبدو في أي مكان . فلم أر المسلحين في الزي العسكري . الذين يفترض ، انطلاقاً من وضع الحصار ، أن تراهم في كل خطوة . كان كل شيء يشع بالنظافة في المطار المنار بشكل ساطع . وفي كل مكان كانت تتلألأ الاعلانات المتعددة الألوان ، بينما كانت الحوانيت الرحبة تعرض تشكيلة واسعة من السلع الأجنبية .

ولكن كان من الواضح أن الوقت غير ملائم لتأملاتي العاجلة ، لأن ايلينا لم تظهر لسبب ما . بينما كنت قد وضعت الحقيبتين في التاكسي ، أضف الى هذا أن عقارب الساعة كانت تتحرك باتجاه موعد منع التجول بسرعة هائلة . وكنا قد اتفقنا على أنه ، في حال تأخر أحدنا ، يقوم الآخر بمتابعة الطريق ، ومن ثم ينقل ذلك بالهاتف على الارقام ، التي زودنا بها للحالات الطارئة . ولكن كان من الصعب علي أن أغادر المطار وحدي . سيما أننا لم نكن قد اتفقنا مسبقا

في أي فندق سننزل . وفي استمارة الدخول ذكرت «كونكيستادور» ، باعتبار أن رجال الاعمال غالبا ماينزلون في هذا الفندق ، أي أنه كان أفضل مايناسب وضعي الحالي . أضف إلى هذا أنني كنت أعرف أن مجموعة التصوير الايطالية تنزل فيه . ولكنني تذكرت للحال أن ايلينا لاتعرف شيئا من هذا .

كنت قد بدأت أميل إلى وضع حد لهذا الانتظار ، وأنا ارتجف من فقدان الصبر وشدة البرد ، حين رأيتها فجأة ، وهي تهرع ناحيتي . لقد اضطرت للتأخر بسبب ، الكيربير في التنورة ، التي ما ان رأت أن ايلينا بدون متاع حتى قامت باجراء تفتيش دقيق على محتويات حقيبة السفر الصغيرة ، بدءا من الوثائق ، وانتهاء بمواد الزينة . وبالطبع فانه لم يخطر ببال المفتشين ان جهاز الراديو الياباني الصغير نوع من السلاح ، طالما أنه كان سيؤمن لنا الاتصال ـ على ذبذبات خاصة ـ مع حركة المقاومة.ويجب القول أنني كنت أكثر منها اضطرابا وتخوفا . لانني اعتقدت أنني امضيت زهاء نصف ساعة في انتظارها . ولكنها أثبتت لي في التاكسي أنها لم تتأخر إلا ست دقائق فقط . كما طمأنني سائق التاكسي ، حين أخبرني أن الوقت المتبقى حتى منع التجول ليس عشرين دقيقة ، كما كنت أعتقد ، بل ثمانين دقيقة كاملة . لان ساعتي كانت حسب توقيت ريو دي جانيرو .

الفصل الثاني :
على أرض الوطن

ـ ١ ـ

مسافرون وحيدون في مدينة غريبة

أثناء انطلاقنا باتجاه المدينة كان سروري بالعودة ، المخلوط بالدموع ، ينحسر بالتدريج ، ليحل محله الشعور بالضياع .

وكلما ازداد اقترابنا من مركز المدينة تناقصت حماستي في تأمل مظاهر الفخفخة ، التي كانت الديكتاتورية تحاول استغلالها بغية محو الآثار الدامية لجرائمها ، وذكرى أكثر من ٤٠ ألف شهيد وألفي مفقود ومليون منفي . وبدأ انتباهي الآن ينصب على الناس ، الذين كانوا يتحركون على الارصفة بسرعة لاتصدق.لعل السبب هو اقتراب موعد منع التجول . ولكن هذا لم يكن هو وحده الذي أذهلني . فقد كانت وجوه المارة وقد أثقل عليها البرد القارس ، ذات سمة مشتركة . فلم يكن أي منهم يتكلم مع الآخر ، ولم يكن أي منهم يلتفت يمنة أو يسرة ، ولم يكن أحد منهم يؤشر للآخر ، أو يبتسم . لم يكن أي منهم يقوم بأية حركة تعبر عن خلجات نفسه ، المخبأة تحت معطف داكن ، لكأنهم كلهم مسافرون وحيدون في مدينة غريبة . وكانت وجوههم ، كما الأقنعة ، لا تعبر عن شيء حتى عن الخوف . وبالتدريج راحت حالتي النفسية تتغير ، ولم أستطع التغلب على الإغراء ، فلم أكد أغادر التاكسي حتى ذبت بين الجمهور . . .

حينما جئت الفندق ، قبيل حلول موعد منع التجول ، كانت ايلينا في الغرفة ، تعمل على اختيار الوضع الملائم لهوائي المذياع

الصغير . أما أنا فقد انطلقت للبحث عن المجموعة الايطالية ، التي كانت تقيم في نفس الفندق .

طرقت باب الغرفة رقم ٣٠٦ ، التي تقع أسفل غرفتنا بطابقين وأنا أكرر بيني وبين نفسي نص كلمة السر الطويل ، والذي اتفقنا عليه في روما ، مع رئيسة المجموعة منذ شهرين . ومن وراء الباب جاء صوت نصف نائم ـ إنه صوت غراتسيا الدافىء ، الذي كان بوسعي التعرف عليه بدون كلمة السر :

ـ من هناك ؟

ـ جبرائيل .

ـ ومن أيضاً ؟ سألت غراتسيا .

فأجبتها : الملائكة .

ـ القديس جرجس والقديس ميخائيل ؟

كانت أجوبتي دقيقة ، ولكن صوتها كان يزداد اضطرابا بعد كل جواب . بدل أن يزداد هدوءا . كان ذلك غريبا ، إذ كان عليها أن تعرفني بصوتي،فغالبا ماكنا نلتقي ، وقد أمضينا نصف عام في ايطاليا معا . ومع ذلك فقد استمرت على اصرارها على كلمة السر ، حتى بعد أن أكدت لها أن الملاكين هما القديسان جرجس وميخائيل .

لم تكن غراتسيا ، التي سبق لها أن قامت باكثر من مهمة خلال سنوات عملها الصحفي ، مرتاحة لنتائج الامتحان .

وسألتني : كم إنشا طول الشريط ؟

وهنا أدركت أنها تنوي تلاوة كلمة السر بكاملها . وكانت نهايتها لاتزال بعيدة ، وشعرت بالخوف حين خطر لي أن نزلاء الغرف

المجاورة يمكن أن يسمعوا لعبتنا المريبة . ولكن لم يكن ثمة خيار من الاجابة على كل الاسئلة . ولم اكد انطق أخيرا بالجملة الأخيرة حتى فتحت غراتسيا الباب ونظرت الي ، وكأنها ترى أمامها شبحا ، وأغلقته وقد استولى عليها الرعب . وفيها بعد اعترفت لي : «كان وجهك يذكرني من بعيد بإنسان ما ، سبق لي أن التقيت به سابقا ، ولكنني لم أستطع أن أتذكره بالتحديد» كان ميغيل ليتين ، الذي عرفته في ايطاليا ، رجلا ذا لحية ، ولم يكن يستخدم النظارات ويرتدي ماهب ودب . أما الطارق فهو أصلع ، قصير النظر ، حليق الذقن . وكان بطقمه يشبه مدير أحد المصارف على الأقل .

- افتحي لاتخافي - قلت لها - إنني ميغيل .

بعد أن تفحصتني بدقة من رأسي حتى أخمص قدمي وسمحت لي بالدخول ، استمرت تراقبني بريبة . وقبل أن تبدأ الحديث معي أدارت قرص المذياع ، وفتحت الصوت حتى النهاية ، كي لايصل حديثنا الى الغرف المجاورة ، أو يتم تسجيله بواسطة مكبرات سرية . ولكنها كانت هادئة ، واثقة من نفسها . كانت قد وصلت منذ أسبوع مع مجموعة ، تضم ثلاثة أشخاص ، وقد حصلوا جميعهم على بطاقات دخول ورخصة التصوير بفضل سرعة سفارتهم . ولم يكن موظفو هذه السفارة يعرفون - طبعا - حقيقة نوايانا . والأكثر من هذا أن المجموعة التقطت صور كبار المسؤولين في النظام . الذين حضروا منذ عدة أيام حفلة أقامتها السفارة الايطالية على مسرح «مونيسيبال» . كان لحضور المجموعة الايطالية هذه الحفلة اهمية كبيرة بالنسبة لنا . لأن ذلك أعطى وجودها في سانتياغو طابع التثبيت

الرسمي . وكان طلب السماح بالتصوير داخل قصر لا ـ مونيدا يناقش في الجهات المسؤولة ، وقد تم التأكيد أن الطريق سيكون ممهدا للحصول على هذا السماح .

ووضعنا خطة محددة . بحيث نبدأ التصوير في صباح اليوم التالي . وقررنا مسبقا أن نخفي ذلك عن بقية أفراد المجموعة ، كي يعتقد هؤلاء أن غراتسيا هي التي تدير العمل برمته . ومن جهة أخرى لم يكن ثمة داع لأن تعرف أن هناك مجموعتين أخريين تشاركان في تصوير الفلم .

في السابعة صباحا طلبت من ايلينا الاتصال على رقم أعرفه ، وطلب شخص ، أفضل أن أعطيه اسما مستعارا ، وليكن فرانكي . كان هو الذي رفع السماعة . ودون أن توضح له غراتسيا شيئا ، قالت له أن غابرييل يطلب منه القدوم الى فندق «كونكيستادور» الغرفة رقم ٥٠١ فلم يمض نصف ساعة حتى جاء .

كنت قد نظمت فرانكي في نهاية العام الماضي . وبالاتفاق معي دخل فرانكي البلاد قبلنا ، مستخدما الطريق البري ـ عبر حدود البيرو ، لمقابلة كل من المجموعات الثلاث ، والتنسيق بين نشاطها. وكانت المجموعات قد بدأت عملها ، حيث كان الفرنسيون في شمال تشيلي يقومون بالتصوير في الاراضي الممتدة من أريكا وحتى فالباراسيو ، كما هو وارد في الخطة ، التي سبق أن ناقشناها بكل تفاصيلها مع رئيس المجموعة في باريس لعدة أشهر خلت . أما المجموعة الهولندية فكانت تصور في الجنوب . وبقي الايطاليون في سانتياغو للعمل تحت إشرافي المباشر . وكان عليهم أن يكونوا العين

الساهرة أبدا لتصوير كل مايمكن أن يحدث بشكل طارىء. وكانت كل المجموعات الثلاث مزودة بتعليمات طرح الاسئلة على الناس حول سلفادور الليندي في كل فرصة سانحة. أي دون حاجة الى المخاطرة، واثارة الشكوك والريبة. كنا نعتبر أن شخصية الرئيس الشهيد نوع من المؤشر، أو جهاز سبر موقف التشيليين من مايجري في البلاد وإزاء مستقبلها.

كان لدى فرانكي خارطة لتنقلات كل مجموعة، وقائمة باسماء الفنادق، التي ستحل فيها، أي أنه كان بوسعه الاتصال بها في أية لحظة. وبفضل ذلك كان بوسعي تزويدها بالتوجيهات عبر الهاتف. وزيادة في الحيطة كان على فرانكي أن يقوم بدور سائقي، أما بالنسبة للسيارات فكنا ننوي استئجارها، على أن نستبدلها كل ثلاثة ـ أربعة أيام في وكالات مختلفة.

- ٢ -

الأمتار الاولى من الشريط

بدأنا العمل في التاسعة صباحا . وقد تبين أن اللقاء مع ساحة بلاسا دي أرماس ، الواقعة على بعد عدة أحياء فقط من فندقنا ، في اليقظة أكثر إثارة منه في أحلامي.كانت تسبح في ضوء الشمس الحنون غير الساطع - فقد كان الخريف يسود النصف الجنوبي من الكرة الارضية - والذي كان يتسرب عبر جذوع الاشجار العالية . وقبل ساعة كانت المجموعة الايطالية قد بدأت تصوير المشاهد الصباحية العادية هنا : تجار الارصفة ، المصورين يقفون قرب أجهزتهم العريقة ، الفنانين الذين يرسمون الشارجي لجميع الراغبين خلال ثلاث دقائق . الاطفال يحملون البالونات المختلفة الالوان ، ويتحلقون من حول عربات الآيس كريم ، والناس الخارجين من الكاتدرائية . وهنا أيضا كانت توجد عدة دوريات مسلحة من رأسها حتى أخمص قدميها . ومن سيارات الباص التي تقل هذه الدوريات ، والمجهزة بمكبرات صوت قوية . كانت تنطلق الألحان الشائعة ، فتغطي المنطقة .

وفيما بعد اكتشفت أن قلة قوات حفظ النظام في الشوارع مجرد وهم ، لايقع فيه إلا حديثو العهد بالبلاد . فنوبات الحراسة مستمرة ، دون انقطاع ، في محطات مترو الأنفاق الاساسية . كما أن السيارات ، المزودة بمضخات الماء ، جاهزة في أية لحظة لأن تخرج من

الأزقة الجانبية ، لقمع أي مظهر من مظاهر الاستنكار العفوي بقسوة ، وهذا مايحدث بشكل يكاد يوميا . والحراسة على ساحة بلاسادي أرماس في غاية التشديد . فهي مركز سانتياغو العصبي . وهنا يقوم فيكازيات التضامن ، القلعة الراسخة للنضال ضد الديكتاتورية . والتي يحميها الكاردينال سيلفا اينريكسي ، والتي تتمتع بتأييد الكاثوليك وكل من يناضل من أجل بعث الديمقراطية في تشيلي .

في بلاسادي أرماس ظهرت مع فرانكي كعابري سبيل عاديين فرأيت أن المجموعة السينمائية قد تمركزت في المكان الذي اخترته مع غراتسيا أمس . وأنها قد لاحظت ظهورنا . ولكنها لم تعط أي ايعاز للمصورين حتى يحين الوقت اللازم . وهنا ابتعد فرانكي عنا ، فأخذت الاخراج على عاتقي . ومن خلال اعتماد الاسلوب ، الذي اتفقنا عليه مسبقا مع رؤساء المجموعات الثلاث . وكان أول ماقمت به أنني طفت حول الساحة المرصوفة . وكنت أتوقف في أماكن محددة كي أدل غراتسيا على توقيت التصوير واتجاهه . حيث كان يجب أن يبدأ حين أكرر جولتي . ولم نكن ، لاأنا ولاهي ، ننوي بعد التنقيب عن تلك التفاصيل المميزة للنظام التنكيلي . كان كل ماهو مطلوب في ذلك الصباح هو عكس جو يوم عادي ، والتركيز على سلوك الناس ، الذين كانوا مايزالون يبدون لي ، كما البارحة . أقل ميلا الى الاحتكاك بالآخرين ، مما كانوا عليه في الأزمنة الغابرة . كانوا في عجلة من أمرهم ، وبالكاد كانوا يولون اهتماما لما يحدث من حولهم ؛ أما أولئك الذين كانوا يتجاذبون أطراف الحديث فكان منظرهم

خامساً .-ولم يكونوا يلجأون في حديثهم الى الاشارات . السمة التي تميز التشيليين ، والتي لاتزال تتعايش في اوساط المهجرين . كنت أنتقل من جماعة الى أخرى . وفي جيب قميصي كانت توجد مسجلة صغيرة على درجة عالية من الحساسية : كنت أريد تسجيل الاحاديث التي كان يمكن أن تصلح للتنظيم الافضل ، ليس ليوم العمل الأول هذا ، بل وللفلم كله .

بعد أن حددت نقاط التصوير جلست أكتب ملاحظاتي على مقعد ، الى جانب امرأة جاءت الساحة لتتدفأ في الشمس ولما كنت أنسى دفتري باستمرار فقد رحت أسجل على علب «جيتان» السجائر الفرنسية المشهورة . وكنت قد أحضرت احتياطيا كافيا من باريس . لقد تصرفت على هذا النحو على مدى كل أعمال التصوير . فجاءت هذه العلب على شكل دفتر مذكرات ، وقد ساعدتني فيما بعد في استرجاع الكثير من تفاصيل الرحلة .

ان تجار الارصفة في تشيلي كانوا موجودين دائما . ولكنني لاأذكر مثل هذا العدد الهائل . حيث يصعب العثور على مكان في مركز المدينة التجاري لاتصادف فيه طوابيرهم الطويلة ، التي يرين عليها الصمت . انهم يبيعون ماهب ودب ، وهم من الكثرة ، وعدم التجانس ، لدرجة أنهم يعرون المأساة الاجتماعية بمجرد النظر اليهم . فهنا تجد الأولاد المشردين ، يعرضون الاشياء المسروقة . أما النسوة في ثيابهن الفقيرة ، فيبعن الخبز ، الذي صنعنه بأيديهن .

وفي الوقت الذي كان فيه المصور يلتقط مايدور في الساحة ، انخرطت في صفوف الناس ، ورحت أسجل نتفات من أحاديثهم ،

على شريط الكاسيت ، على أن استفيد من هذه الاحاديث ، فيما بعد في التعليق على الفلم . وقد حاولت أن لاأسبب الاحراج لأي منهم في حال التعرف عليه على الشاشة فيما بعد . كانت غراتسيا تراقبني باهتمام من الزاوية المقابلة من الساحة ، وكنت بدوري لاأدعها تغيب عن نظري. ونزولا عند توجيهاتي بدأت التصوير من أكثر المباني ارتفاعا ، ومن ثم انخفضت العدسة اسفل فأسفل ، وراحت الآلة تدور ، وأخيرا احتوت الجنود المسلحين . كنا نريد تصوير التوتر يخيم على وجوههم ، هذا التوتر الذي كان يزداد باطراد مع تزايد حيوية الساحة ، كلما اقتربت الظهيرة .

أمضينا خمسة أيام أخرى في التصوير في سانتياغو ، وخلال هذه الفترة اقتنعنا بمدى ضمانة نظام عملنا وسلامته . وفي الوقت نفسه كنت على اتصال هاتفي دائم مع المجموعتين الفرنسية والهولندية . كانت صلات إيلينا مثمرة جدا . وبالتدريج استطاعت الاتفاق على العديد من اللقاءات ، التي كنا نود الحصول عليها مع قادة العمل السري ، وكذلك مع الشخصيات السياسية ، التي تمارس نشاطها بشكل قانوني .

-٣-

انفجار في فندق «كاريرا» في العاصمة

نادرا ماكنت أخرج الى الشارع بدون مرافق ، وحينما كان يحدث هذا كنت أشعر بالوحدة . صحيح أن أعين المقاومة كانت ساهرة علي أينما كنت ، وهي على استعداد لمد يد العون ، ولكنني لم الحظ هذا . فقط حينما كنت ألتقي الناس ، الذين كنت أثق بهم بشكل تام ، والذين لم أكن أرغب في إحراجهم حتى أمام اصدقائهم الخلص ، كنت أطلب رفع الحراسة مسبقا .

بين الفنية والأخرى كنت وايلينا ننتقل من فندق الى آخر . صحيح ان فندق «كونكيستادور» كان مريحاً وكان مناسباً من شتى النواحي ، ولكنه كان يقوم في منطقة تمركز قوات التنكيل ، وكان لدينا مايبرر الاعتقاد أنه كان تحت مراقبة من نوع خاص .

ان ذكرياتي عن فندق «كاريرا» لاتدعو الى البهجة ، فمن نوافذه يبدو قصر «لامونيدا» بكامله ، وقد كانت مخاوفي في مكانها ، فبعد عدة أيام من نزولنا في هذا الفندق حل في الفندق اياه عريس وعروسه ، يمضيان شهر العسل ، وقد وقع اختيارهما على الغرفة المجاورة لغرفتنا . ثم نصبا على حامل آلة تصوير مدفع بازوكا ، مزوداً بجهاز تفجير ، موقوت ، وسدداه الى مكتب بينوشيت . كانت الفكرة واسلوب تنفيذها في منتهى الروعة . فقد ظهر بينوشيت في مكتبه في الوقت المحددة ، ولكن حين الاطلاق

سقط الحامل ، ففقدت الطلقة مسارها وانفجرت في الغرفة .

حل الاسبوع الثاني على وجودنا في تشيلي . وقد قررت أنا وفرانكي القيام بجولة في البلاد ، على أن نبدأ من كونيسبسيون ولم يكن قد تبقى لنا من عمل في سانتياغـو الا الالتقاء بقيادة التنظيمات السرية والعلنية ، وتصوير قصر «لامونيدا» من الداخل . كانت اللقاءات السابقة تتطلب اعداداً معقداً ، وراحت ايلينا تنكب على هذا التحضير بكل حماسة واندفاع يستحقان الاعجاب .

لم يرفض طلبنا في تصوير القصر ، ولكن الموافقة الرسمية لم تكن لتصدر الا في الاسبوع القادم . وهكذا فقد كان لدينا أنا وفرانكي الوقت الكافي لانجاز الأعمال المطلوبة في المناطق الأخرى من البلاد . وهكذا اتصلنا بالمجموعة الفرنسية هاتفياً ، وطلبنا منها العودة الى سانتياغو حال الانتهاء من عملها ؛ واتفقنا مع الهولنديين أن يتابعوا تصويرهم في الجنوب ، والتحرك باتجاه بويرتور - مونتو ، حيث كان عليهم انتظار تعليمات جديدة . وسأبقى أعمل مع المصورين الايطاليين . .

وكما اتفقنا مسبقاً فقد كرسنا أحد الأيام لتصويري في شوارع المدينة ، كي لا تستطيع السلطات الرسمية أن تنفي فيما بعد ، أنني نفسي كنت المشرف على تصوير الفلم في تشيلي . وهكذا فقد صورت في خمسة أماكن معروفة في سانتياغو قرب «لامونيدا» ، وفي بارك «فوريستال» ، وعلى الجسور عبر نهر «مابوتشو» ، وعلى جبل «سان كريستوبال» ، وأمام كنيسة القديس فرانسيس .

أثناء التصوير في شوارع سانتياغو التقيت العديد من معارفي القدماء ، الذين كانوا يمرون بي مرور الكرام : الصحفيين ،

الشخصيات السياسية ، ممثلي الثقافة . ولست أذكر أن أحدا منهم ألقى علي ،ولو نظرة عاجلة ، وهذا ما زاد ثقتي رسوخاً . ولكن في أحد الأيام حدث ما كان يجب أن يحدث ، إن عاجلاً أو آجلاً . لاحظت أمامي إمرأة انيقة في ثوب عاجي اللون ، بدون معطف ـ لكأن الطقس صيف ـ كانت تسير باتجاهي . عرفتها حين لم يعد يفصل بيننا إلا قرابة ثلاثة أمتار . كانت تلك ليو ، حماتي . وكان قد مضى على آخر لقاء لنا ستة أشهر فقط ، كان ذلك في اسبانيا . ثم انها كانت تعرفني لدرجة أنه لم يكن بالامكان الاعتقاد أنها لن تتعرف علي من هذه المسافة القريبة. عزمت على العودة أدراجي ، ولكنني تذكرت انني دربت على التغلب على هذا الشعور الطبيعي في داخلي . حين اخبروني أن العديد من العاملين سرا ، المتحلين شخصيات أخرى ، كانوا يكتشفون من قفاهم . كنت أثق بحماتي بما فيه الكفاية ، ولم يكن ثمة داع للقلق ، حتى ولو حدث أن لا حظتني ، ولكنها لم تكن وحدها . فقد كانت تتأبط ذراع أختها ، العمة مينا ، التي كانت تعرفني بدورها ، كانت حماتي تبادلها الحديث بما يقرب من الهمس . ثم انني لم اكن لأشعر بالقلق لو التقيت بهما في ظروف أخرى . ولكنني كنت أخشى ردة فعلهما المفاجئة فليس بغريب أن تبدآ ، تحت وقع المفاجأة ، تصيحان بصوت عال : «ميغيل ، عزيزنا ، لقد أتيت ، يا للروعة ، أو شيئاً من هذا القبيل . ثم انه كان من الخطر عليهما أن تعرفا أنني موجود في تشيلي بشكل غير شرعي .

ولما كنت عاجزا عن القيام باي إجراء ،فقد قررت متآبعة سيري ، وكأن شيئا لم يحدث . ونظرت إلى حماتي نظرة ثاقبة ، وأنا على استعداد لكم فمها إذا مالاحظتني . وحين أصبحت على سويتي التقت عيناها للحظة بنظرتي الباردة ، الخائفة ، ومن ثم ودون أن تتوقف عن الثرثرة مع العمة مينا ، القت علي نظرة غائبة ، وقد كنت قريبا منها لدرجة أن رائحة عطرها نفذت إلى أنفي .

الفصل الثالث

ليل فوق تشيلي

ـ ١ ـ

الجانب الآخر من المعجزة

يخترق نهر «مابوتشو» المدينة عبر مجرى مرصوف ، وتمتد فوق النهر جسور جميلة ، تشكل تصاميم معدنية رائعة . تجعلها صامدة في وجه الزلازل . وفي الأشهر الأولى ، التي اعقبت الانقلاب العسكري،أصبح نهر «مابوتشو» معروفاً في العالم بأسره.فبعد عمليات المداهمة الليلية للاحياء المحيطة بالمدينة ، المعروفة باسم «بوبلاسونيس» ، كانت مياهه تحمل الجثث المشوهة . ومنذ عدة سنوات يمكن ان تشاهد على ضفتي النهر لوحة درامية أخرى : مجموعات كبيرة من الجائعين تتسكع هنا ، بحثا عن النفايات ، التي تلقى في النهر من أسواق الضواحي ، وينتزع هؤلاء غنائمهم من الكلاب وطيور الجيف .

ذلكم هو الجانب الآخر من «المعجزة التشيلية» ، التي تجري تحت إشراف الديكتاتورية الحربية ، وبمباركة «مدرسة شيكاغو» .

يكفي أن تطوف الاسواق الواقعة على ضفتي «مابوتشو» حتى تدرك القيمة الاجتماعية لهذه المليارات التسعة عشر من الدولارات ، التي انفقت عبثا (المقصود أن مديونية تشيلي الخارجية قد ارتفعت الى هذا الرقم في ظل الزمرة الحاكمة ـ الناشر) . فهذه «المعجزة الحربية» جعلت الأغنياء أكثر غنى ، وزادت الى حد كبير من افقار بقية التشيليين . .

فجأة جاءتني الفكرة المعقولة في أن القطار افضل واسطة للتنقل في أنحاء البلاد . حيث لا وجود للرقابة المشددة ، التي تصادفك في المطارات والطرق المعبدة .

وهكذا ركبنا القطار في الحادية عشرة مساء من المحطة المركزية في العاصمة ، وفي رانكاغوا ، محطتنا الأولى ، كان يسود البرد والفراغ . ولم نلتق أي روح حية على رصيف المحطة . المسربل بالضباب الشفاف . وقد ذكرني بالارصفة من الافلام التي تتحدث عن المانيا النازية . قرابة ٥٠٠ كيلومتر حتى كونسيبسون ظل الصمت المطبق يخيم علينا . لكأن حظر التجول لم يقتصر على ركاب القطار الليلي المندفع ، بل وعلى كل ما هو حي في الطبيعة . وبين الفينة والأخرى كنت ألقي نظرة من النافذة . وبالكاد ، عبر الضباب ، كنت أستطيع تمييز الارصفة الخاوية ، الحقول الهامدة ، الليل الكبير الفارغ وقد حط بكلكله على وطني .

الشيء الوحيد الذي كان يدل على وجود الانسان هو الصفوف التي لا نهاية لها من حواجز الاسلاك الشائكة ، الممتدة على طول السكة ، ومن ورائها لم يكن ثمة شيء : لا بشر ، لا أزهار ، ولا حيوانات . وتذكرت نيرودا : «في كل مكان الخبز ، الرز وأشجار التفاح . أما في تشيلي فالاسلاك الشائكة ، والاسلاك الشائكة ، والاسلاك الشائكة» . في السابعة صباحا ، وقبل أن نأتي على نهاية الموانع الشائكة وصلنا الى كونسيبسون .

في الستينيات شهدت هذه المدينة ولادة الحركة الطلابية ، وهنا حصل سلفادور ألندي على التأييد الحاسم ، الذي حدد مسبقا اختياره ، وهنا ارتكب الرئيس غابرئيل غونساليس ڤيديلا مجازر

التنكيل الدامية في عام ١٩٤٦ ، قبل فترة قصيرة من افتتاحه معسكر الموت الأول في بيساغوا ، وفيه تدرب الضابط الشاب اوغوستو بينوشيت على فن الارهاب والقتل .

من نافذة التاكسي ، التي أقلتنا الى مركز المدينة ، رأينا من خلال الضباب الجليدي الكثيف صليبا يتيما قرب مدخل الكاتدرائية . وبالقرب منه باقة من الورود لا تذبل . ففي هذا المكان قام عامل المنجم المسكين سيباستيان أسيفيدو باضرام النار في جسده ، بعد أن يئس من العثور على من يدافع عن ولديه (الابن عمره ٢٢ عاما ، والابنة ، وعمرها عشرون عاما) ، اللذين اعتقلا بسبب حملها السلاح بدون ترخيص ، وتعرضا للتعذيب الوحشي في المركز الاعلامي الوطني (البوليس ـ الناشر) ، ومنذ ذلك الحين أطلق سكان المدينة على هذا المكان اسم ساحة سيباستيان أسيفيدو .

- ٢ -

في ضيافة عمال التعدين في لوتا وشفاغير

استأجر فرانكي سيارة . وفي المقهى تناولنا قدحين من القهوة الباردة ، لأن الماء الحار لم يكن متوفرا . واتجهنا ناحية مناجم الفحم لوتا وشفاغير ، عبر جسر نهر «بيو - ربيو» ، أكثر أنهار تشيلي غزارة ، بمياهه الغافية ، التي كانت بالكاد تبدو من خلال سجف الضباب ، بلون المعدن الباهت . وفي القرن الماضي أعطى الكاتب التشيلي فالدوميرو ليلو وصفاً مسهباً لهذه المناجم وحياة العاملين فيها ، ولا تزال كتاباته تلك محافظة على حيويتها والحاحها .

في الطريق مررنا بثلاثة مخافر بوليسية ، كان أكثرها تعقيداً ، كما كنا نتوقع ، المخفر الأول. ولذا فقد اضطررنا لأن نستخدم كل مدفعيتنا الكلامية ، حينما سئلنا عن الغرض من زيارة لوتا وشفاغير . والواقع أنني أنا نفسي لم أكن انتظر مثل هذا الدفق البلاغي . فقد أخبرتهم اننا في طريقنا للتمتع بمشاهدة البارك المشهور في أمريكا بأسرها بأشجار الأراوكاري ، والتماثيل النادرة ، المحاطة بطيور الطاووس والتم ، ذات الاعناق السوداء . ان هدفنا هو استخدام هذا المكان لتصوير فلم إعلاني ، يصور للعالم بأسره ميزات «أراوكاري» ، العطور الجديدة ، التي تحمل هذه التسمية ، تيمنا بهذا المكان الفردوسي .

ان أي شرطي تشيلي غير قادر على مقاومة هذا الايضاح

البليغ ، سيما اذا كان مطعما بالاوصاف البديعة لجمال الطبيعة في بلاده ، وهكذا فقد تمنوا لنا سفرا سعيدا ، ويبدو أنهم أخبروا المخفر التالي بقدومنا ، لأنهم لم يطلبوا منها الهويات في ذلك المخفر . وان كانوا قد فتشوا السيارة والحقائب . ومن بين الاشياء لم يلفت انتباههم سوى آلة التصوير السينمائي «سوبر ـ ٨» على الرغم من أنها للهواة ، لأن التصوير في المناجم كان يتطلب اذنا خاصا . ولكننا أوضحنا لهم أننا لن نذهب أبعد من البارك بتماثيله وتمه .

أرضت نتائج التفتيش الشرطة ، وبعد نصف ساعة تجاوزنا منعطفا حادا وضيقا ، مارين بهدوء قرب المخفر الثالث، حيث وصلنا البارك . وفي أعماقه يقوم قصر يبدو وكأنه قد خرج من بين صفحات الأساطير السحرية ، وتطل شرفاته على المحيط الهادي ، اللامتناهي .

أمضينا النصف الأول من اليوم في البارك ، نصور بآلة «سوبر ـ ٨» تلك الأماكن ، التي كان على مجموعتنا أن تصورها لاحقا . بعد الحصول على الاذن الرسمي . وقد ناقشنا كل ما يهمني : الراكورس ، فتحات العدسة ، المسافة ، المواضيع ـ في البداية منظر عام للبارك ، ومن ثم القرية البائسة في الاسفل ، حيث يقطن عمال المناجم وصيادو السمك .

كانت مناجم الفحم واقعة في أنفاق عميقة وهناك في الظروف الرهيبة كان يعمل آلاف العمال ، وفي الاعلى ، لدى مدخل المنجم ، يقوم مئات الرجال والنساء والاطفال بتقليب الارض ، بأيديهم العارية ، كما الخلد ، بحثا عن نفايات الانتاج .

في هذه المنطقة غرف سلفادور ىالليندي التأييد السياسي والعاطفي . وهنا نظمت «مسيرة الفحم» المشهورة في عام ١٩٦٥ ، حينما اجتاز عمال المناجم ، وقد ران عليهم الصمت ، جسر نهر «ريبو - بيو» ، ودخلوا «كونسيبسون» ، يحملون الرايات واليافطات ، وكانت تلك المسيرة أبلغ دليل على أن الحكومة (المحافظة) لم تعد تحسد على وضعها . وفي ذلك الوقت كان اليندي عضواً في مجلس الشيوخ ، وكان موجوداً هنا آنذاك ، وأعتقد انه اقتنع بتأييد الشعب كله . وفيما بعد ، وبعد أن أصبح رئيساً للبلاد ، خص هذه المنطقة باحدى جولاته الاولى ، وتحدث مع عمال المناجم في ساحة لوتا .

وكنت آنذاك بين مرافقيه . كان عمال المناجم ذوو القامات القصيرة ، والثياب الملوثة ، والوجوه العابسة ، والذين ظلوا يقدمون لهم الوعود على مدى سنوات عديدة ، كانوا يتحدثون معه حديث الند للند . لقد اصبحوا هم بالذات الحصن ، الذي ضمن له الفوز النهائي . وكما وعد في ذلك اليوم في لوتا وشفاغير ، فقد كان تأميم المناجم واحدا من التدابير الأولى للحكومة . وكانت إعادة هذه المناجم الى الأشخاص واحدة من التدابير الاولى لبينوشيت . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن القطارات والمرافىء ، وحتى جمع القمامة ، التي انتقلت الى أيدي الافراد .

في الرابعة بعد الظهر ، وكنا قد أنجزنا ما خططنا لتصويره في المناجم ، عدنا الى كونسيبسون ، عبر طريق تالكاون ، بدون أية مضايقات، لامن السلطات المدنية ولا العسكرية. كان طريق العودة صعباً بسبب كثرة عمال المناجم العائدين الى منازلهم يغلفهم الضباب ، وهم يدفعون العربات الصغيرة ، وفيها قطع الفحم الذي

جمعوه في نفايات المناجم . كان الرجال الدحداحون ، الشبيهون بالاشباح ، والنساء القصيرات القامة ، الجلودات ، يحملون اكياس الفحم على ظهورهم . وكان الاطفال برفقتهم كان المنظر يترك انطباعا مشؤوما .

كان الضباب يلفظهم على حين غرة ، وقد غمرتهم أضواء السيارات الباهتة .

-٣-

اليندي ونيرودا خالدان أبدا

تشكل بوبلاسونيس ، المناطق الشاسعة في ضواحي المدن التشيلية الكبرى ، الى حد ما «مناطق حرة» فلا البوليس ولاالجيش يتجاسران إلا في حالات الضرورة القصوى ، على دخول هذه المناطق الفقيرة ، حيث يمكن للفيل أن يختفي دون أثر ، وحيث يضطران لمواجهة أشكال المقاومة الاصيلة ، التي تقف اساليب التنكيل العادية إزاءها عاجزة . كان التصوير في تلك الاحياء في غاية الاهمية بالنسبة لنا ، لأنه كان يسمح بالكشف«من خلال اساليب السينما الوثائقيه» ، عن مزاج الشعب ، موقفه من الديكتاتوريه ، ومدى تقديسه لذكرى سلفادور اليندي .

في بداية حكمه أعلن الجنرال بينوشيت عن نيته البقاء في السلطة إلى أن تمحى من ذاكرة الجيل الجديد ، وبشكل نهائي ، ذكرى النظام الديمقراطي . ولكنه لم يستطيع بالطبع حتى أن يتصور مثل هذه النيه،الهدامه ستنعكس ضد نظامه بالذات . فمنذ عهد غير بعيد دفعه اليأس ، ازاء نضال الشبيبة ، التي ترشق قوات التأديب بالحجارة ، وتناضل والسلاح بيدها ،ولكن طي الخفاء ، وتقوم بالنشاط السياسي والسري ، بغية بعث النظام الذي لايذكره الكثيرون من الشباب ، دفعه هذا اليأس الى أن يصيح،وقد استبد به الغضب ، بأن هذه الشبيبة تتصرف على هذا النحو لأنها تفتقر إلى أي

تصور عن طبيعة الديمقراطية ،التي كانت في تشيلي .

ان اسم سلفادور الييندي هو الذي يساعد في عدم نسيان الماضي . وفي «بوبلاسونيس» يصل تقديس ذكراه حدا لايصدق . كانت هذه الأحياء تهمنا بالدرجة الأولى لأننا كنا نريد رؤية الظروف ، التي يعيش فيها سكانها ، ومعرفة مدى وعي نضالهم ضد الديكتاتورية ، والتعرف على الاشكال المتميزة لهذا النضال . على أسئلتنا أجاب الجميع بكل نزاهة وصراحة ، ولكن فقط حينما كان الحديث يدور عن الييندي ، كانت شهادات أشخاص مختلفين تبدو وكأنها رأي شخص واحد : «كنت أصوت الى جانبه أبداً ، وليس الى جانب أي انسان آخر» .

ان هذه الاجابة تصبح مفهومه اذا تذكرنا عدد المرات التي رشح فيها الييندي لمنصب الرئاسة . حتى أنه قال ذات مرة مازحا أن شاهدة قبره ستحمل عبارة: «هنا يرقد سلفادور الييندي رئيس تشيلي القادم » . وقبل أن ينتخب رشح نفسه أربع مرات لهذا المنصب ، وقبل ذلك كان ينتخب باستمرار عضوا في مجلسي النواب والشيوخ . والأكثر من هذا أنه خلال سنوات حياته البرلمانية الطويلة انتخب نائبا لأغلب الاقاليم الواقعة في مناطق مختلفه من البلاد ، من حدود البيرو وحتى باتاغونيا ، وهكذا فلم يكن الأمر يقتصر على معرفته بكل شبر من الاراضي والقاطنين فيها ، بثقافاتهم المختلفة ، بأتراحهم وأمانيهم ، بل وكان الشعب يعرفه شخصيا. وعلى عكس الكثيرين من السياسيين ، الذين لاتراهم الا في الصور المنشورة في الصحف ، وعلى شاشات التلفاز ، أو تسمعهم بالراديو ، فان

الليندي كان يناقش المشاكل السياسية في منازل التشيليين مباشرة ،ويحتك بالناس في جو من الصداقة ، ويزورهم ، كأنه طبيب العائلة ، وبالفعل فقد كان اياه .

عبر جولتنا الطويلة في أنحاء البلاد لم نر مكانا واحدا لم يترك فيه ذكرى . ففي كل مكان تعثر على من صافحه ، من عمد ابنه ، ومن شفى من السعال المزمن بمنقوع نباتي من تحضيره ، ومن ساعد في الحصول على عمل ، ومن فاز على الليندي بـ« برتية » شطرنج . إن أي شيء يتعلق بالليندي يوضع في حرز حريز . فقد قالت لي امرأة في التاسعة عشرة من عمرها ، لديها صبي ، وتنتظر آخر : « غالبا ما أحدث ابني كيف كان الرئيس ، على الرغم من أنني بالكاد أعرفه ، فقد كنت لاأزال طفله حين استشهد » . وفي أحد المنازل ، حيث علقت على الجدار صورة عذراء ديل كارمن ، سألنا ربة البيت هل كانت من أنصار الليندي فكان الجواب :«ولماذا كنت؟ انني مازلت من أنصاره » . وحين رفعت صورة العذراء ظهرت صورة الليندي خلفها .

ابان حكمه كانت تباع في الاسواق تماثيل نصفية له ، وأمام هذه التماثيل توضع في « بوبلاسونيس » الازهار وتوقد الشموع . ان ذكراه تتضاعف : فهي حية في قلوب الشيوخ ، الذين صوتوا له أربع مرات ، وفي قلوب اولئك الذين صوتوا ثلاث مرات ،وفي قلوب اولئك الذين انتخبوه رئيسا . واخيرا في افئدة الاطفال ، الذين لايعرفون عنه إلا من خلال ذاكرة التاريخ التي لاتمحى . وقد كررت عدة نساء الجملة التالية : «ان الرئيس الوحيد الذي اهتم بحقوق المرأة كان الليندي » . وقلة من الناس تسميه باسمه ، بل يقولون

ببساطة: «الرئيس» لكأنه لايزال رئيسا ، لكأنه كان الوحيد ، لكأنهم يأملون في عودته . ولكن ذاكرة سكان « بوبلاسونيس » تحتفظ بذكراه ليس كشخص ، بقدر ما تحتفظ بعظمة تفكيره الانساني . فتسمعهم يقولون لك : «لسنا بحاجة للمأوى والطعام ، اننا نريد أن تعاد لنا كرامتنا »، ثم يضيفون : « الشيء الوحيد الذي نريده هو أن يعيدوا لنا ما انتزعوا منا: حق الانتخاب » .

ان تقديس اليندي يطالعك بشكل خاص في فالباراسيو ، المدينة الساحلية ،الكثيرة الضجيج ، حيث ولد اليندي وترعرع ، وتبلور كشخصية سياسية .

والغريب أن الديكتاتورية أوعزت بدفنه في فالباراسيو ، حيث كان يريد أن يدفن دون ريب . وقد نقل جثمانه إلى هناك سرا ، تحت جنح الظلام ، ليل الحادي عشر من ايلول(سبتمبر) ١٩٧٣في طائرة حربية عتيقة . ومن الثقوب بداخلها كان يندفع الزمهرير الجنوبي . كانت زوجته أورتينسيا بوسي ، واخته لاورا الوحيدتين اللتان رافقتا النعش . وقد أعلن أحد رجال المخابرات السابقين في الزمرة العسكرية ،والذي كان في طليعة من دخل قصر« لامونيدا » للصحفي الامريكي توماس هاوزر ،أنه رأى جثة الرئيس ، وقد تحطم رأسه ، وانتشرت أشلاء دماغه على الارض والجدران . ولعل هذا هو السبب في أن العسكريين رفضوا طلب زوجته الكشف عن وجهه ، ولم تـر إلاجسمه المغطى بالكفن . دفن الرئيس في مقبرة القديسه إنيسا ، في ضريح الأسرة . وعلى مدى هذه السنوات أصبح القبر مكانا يؤمه الحجاج ، ولايخلو من الازهار ،التي يضعها

مجهولون ، وبغية وضع حد لذلك راحت الزمرة العسكرية تروج لاشاعة مفادها أن جثمان الرئيس نقل الى مكان آخر ، ولكن الازهار لاتزال تظهر على القبر .

أما الشخصية الأخرى ، التي لاتزال ذكراها خالدة أبدا في الاجيال الجديدة ، فهي شخصية بابلو نيرودا ومنزله في ايسلا نيغرا(الجزيرة السوداء) . وعلى الرغم من هذه التسمية فان هذا المكان لايمت بصلة لاالى الجزيرة ، ولاالى اللون الاسود . انه عبارة عن قرية عادية يقطنها صيادو السمك ، على بعد أربعين كيلومترا الى الجنوب من فالباراسيو ، على الطريق المؤدي الى سان انطونيو . تحيط بها أشجار الصنوبر العملاقة ، على شاطيء البحر المتلاطم ، المائل الى الخضرة . كان لدى بابلو نيرودا هنا منزل يحج اليه عشاقه من جميع أنحاء العالم . وبينما كانت المجموعة الايطالية تنجز عملها في مرفأ فالباراسيو سافرت مع فرانكي الى هناك لوضع خطة التصوير .

ان منزل نيرودا ، الذي يتفيأ ظلال الصنوبر ، محاط من جميع الجهات بسياج بعلو يقارب المتر ، وقد أقامه الشاعر من حول حياته الخاصة . والآن نمت الازهار من حول السياج . وتحذر اللوحة بأن البوليس ختم البيت بالشمع الأحمر ، وأن الدخول والتصوير ممنوعان . وقد عبر الجندي المسلح ، الذي كان يظهر قرب المنزل بعد فواصل زمنية محددة ، عن ذلك بشكل أكثر دقة : « كل شيء محظور هنا » . ولما كنا نعرف ذلك مسبقا فقد أحضر المصور الايطالي معه آلة تصوير ضخمة تبدو للعيان مباشرة ، من أجل تسليمها للجنود المسلحين ، وأدخل آلة صغيرة خفية . ثم ان المجموعه جاءت في

ثلاث سيارات لنقل الشريط إلى سانتياغو كلما صورنا قسما . وهكذا فحتى لو فاجأونا ، ونحن نصور إذن لاقتصر الضرر على ذلك الجزء من الشريط الذي كنا نصوره في تلك اللحظة . وعند الخطر كان على أعضاء المجموعة أن يتظاهروا أنهم لايعرفونني ، أما أنا وفرانكي فكان علينا أن نتظاهر أننا سائحان بريثان .

وبالمناسبة فان بيت الشاعر الاساسي كان يقوم في سانتياغو ، في شارع ماركس دي لابلاتا ، حيث توفي بسبب اصابته بفقر الدم المزمن ، والذي تفاقم بسبب الاحداث المأسوية ، بعد عدة أيام من الانقلاب العسكري . وقد تعرض هذا البيت للسطو على أيدي جنود النظام التعسفي ، الذين أضرموا النيران في الحديقة ، واستخدموا الكتب وقودا لها .

ومع ذلك فان منزل نيغـرا هو المنزل الذي يرتبط في اذهان عشاق نيرودا بشعره ، وحتى بعد موته ، وعلى الرغم من الفقر السائد هنا ، لا تزال تتوافد إليه الأجيال الجديدة من العشاق ، الذين لم يكونوا قد تجاوزوا الثامنة من عمرهم حين مات الشاعر . انهم يأتون من كل أنحاء العالم ، يرسمون القلوب ، وعليها الأحرف الأولى من أسمائهم ، ويتركون الكتابات على السياج ، الذي يسد الطريق الى البيت . وأغلب هذه الكتابات تدور حول موضوع واحد «خوان وروسا أحبا بعضهما بفضل بابلو» . ولكن هناك كتابات أخرى ، لا يستطيع الجنود أن يلاحظوها ويمحوها فوراً : «ان الحب لا يموت أبداً أيها الجنرالات» ، «الييندي ونيرودا حيان» ، «دقيقة واحدة من الظلمة لا تحولنا الى عميان»

- ٤ -

لقاء يحلم به كل صحفي

كانت كل بكرة ترسل ، كما اتفقنا ، على جناح السرعة الى سانتياغو . كي تستطيع غراتسيا ، المسافرة الى ايطاليا مساء ، أن تأخذ هذه المادة معها . ولم يكن اختيار توقيت سفرها عشوائيا . ففي غضون الاسبوع ناقشنا طريقة اخراج الاشرطة ، المصورة من تشيلي ، ولكننا لم نستطع تلمس الطرق السرية ، التي تتضمنها الخطة الموضوعة سلفا . كنا نضرب أخماسا لأسداس حين سمعنا خبرا مفاده أن فرانسيسكو فريسنو، كاردينال تشيلي الجديد ، سيصل من روما ليحل محل الكاردينال سيتفا اينريكس ، الذي ترك العمل في سن الخامسة والسبعين . وقد ألغت الحكومة ، لعدة أيام ، القيود الناجمة عن حالة الحصار ، وراحت ، من خلال وسائل الاعلام الجماهيري ، تدعو الى تنظيم استقبال حافل للمونسينيور فريسنو . وفي الوقت نفسه بدأ الجنرال بينوشيت جولة لمدة اسبوعين في شمال البلاد ، وبرفقته أسرته وحاشيته من الوزراء الجدد ، غير المشهورين . ومما لاريب فيه أن السبب هو كي لايضطر لاهو ولاهم ، للمشاركة في حفل الاستقبال ، الذي كان يمكن أن يتمخض عن أشياء غير متوقعة .

وعلى أية حال فلم يكن من الصعب التنبؤ بأن بعض الارتباك سيسود اوساط السلطات يوم وصول الكاردينال ، وقد قررنا انتهاز

هذه الفرصة ، كي نخرج من البلاد الدفعة الاولى من الشريط المصور . وفي المساء نفسه تلقينا في فالباراسيو خبرا بالشيفرة « غراتسيا صعدت الى السماء » . لقد حدث ذلك على النحو التالي : فقد وصلت المطار ، المحاط بحواجز بوليسية لم يسبق لها مثيل ، والذي يغص ، في الوقت نفسه بجمهور غفير من الناس ، حتى رجال البوليس ساعدوها في تسجيل الحقائب ، وفي الصعود بدون صعوبة لتحتل مكانا في نفس الطائرة التي وصل الكاردينال على متنها للتو .

بدأ القلق يساور ايلينا واستبد بها الخوف فقد سافرتُ للتصوير في كونسيبون وفالباراسيو ، ولكنني لم أظهر حتى الآن . وكانَ عليها أن تعلن عن اختفائي ، ولكنها تمهلت ، لأنها تعرف انني مرتجل يصعب علاجه . أمضت ليل السبت وهي تنتظر على أحر من الجمر ، واذ رأت أنني لم أظهر يوم الأحد ، حاولت الاتصال بالناس الذين بوسعهم مساعدتها في العثور علي . ومن ثم قررت تحديد يوم الاثنين آخر مهلة ، وأن تقوم في منتصف النهار باعلان الخطر ، وهنا اقتحمت الفندق . وقد اخبرتني أنها نفذت غير قليل من المهام الخطيرة والهامة ، واقسمت لي أنه لم يسبق أن ذاقت من المنغصات مع أي زوج مزيف ، حتى مع أكثرهم تمردا ، كما ذاقت معي . والواقع أنه كان لديها في هذه المرة اسباب هامة اضافية للقلق . فبعد اتصالات لا تحصى ولقاءات لم تتم وحسابات دقيقة حدد لي لقاء في الساعة الحادية عشرة من صباح هذا اليوم مع قادة جبهة مانوئيل ريدريفس الوطنية (احدى التنظيمات القتالية في حركة المقاومة ـ الناشر) .

كان ذلك- دون ريب - اللقاء الأصعب والأخطر من بين كل

اللقاءات التي خططنا لها . ولكنه كان أكثرها أهمية . فصفوف الجبهة الوطنية تضم ، بشكل أساسي ، ممثلي الجيل الذي كان قد أنهى المدرسة الابتدائية للتو ، حين استيلاء بينوشيت على السلطة . وتناضل هذه المنظمة من أجل توحيد جهود جميع قوى المعارضة ، للاطاحة بالديكتاتورية ، والعودة الى الديمقراطية ، التي تسمح للشعب التشيلي بتقرير مصيره بنفسه .

أن تتمكن من اجراء لقاء صحفي مع قادة الجبهة الوطنية ، هذا لعمري امتياز ، يراود أحلام كل صحفي . ولم اكن لأشذ عن هذه القاعدة . وصلت مكان اللقاء في اللحظة الأخيرة ، بعد أن وزعت أعضاء المجموعة في النقاط المحددة . أتيت بمفردي الى موقف الباص في شارع «برافينيسيا» ، أحمل نسخة من صحيفة «ميركوريو» ، الصادرة في ذلك اليوم ، ومجلة «كي باسا؟» وذلك ليتعرفوا علي بها . ولم يكن علي أن أقوم بأي شيء إلى أن يقترب مني أحدهم ، ويسألني : «هل تقصد المسبح؟» فأجيب: «كلا أقصد حديقة الحيوانات» . كانت كلمة السر تبدو لي غير معقولة: فمن يخطر له الذهاب الى المسبح في فصل الخريف؟ ولكن عناصر الارتباط التابعين للجبهة الوطنية ، اشاروا فيما بعد ، أن جودة كلمة السر تعود بالذات الى كونها غير معقولة : فمن رابع المستحيلات أن يطرح أحد مثل هذا السؤال مصادفة ، أو عن طريق الخطأ . وبعد عشر دقائق ، وحينما خيل الي أن وجودي في مثل هذا المكان ، الذي يمور بالحياة ، ملفت للانتباه بشكل زائد ، رأيت شابا يتجه نحوي ، معتدل القامة ، في غاية النحافة ، يعرج على رجله اليسرى ،

ويرتدي البيريه ، وهذا ماكان كافيا للدلالة على أنه متنكر . كان يسير ناحيتي بشكل سافر ، وحينذاك اتجهت لملاقاته . ودون أن أنتظر كلمة السر منه سألته ،وأنا أبتسم :

-ألم تجد زيا آخر غير هذا؟ حتى أنا تعرفت عليك فورا .

لم تبد عليه ملامح الدهشة ، بقدر مابدت عليه أمارات الأسى :

-وهل هذا واضح جدا؟

فأكدت له : من مسافة كيلومتر .

كان الشاب يتحلى بالاحساس بالفكاهة ، وكان خاليا من تزمت الذين يعملون في السر ، مما ساعد في تلطيف الجو فورا . ولم يكد يقترب مني حتى توقفت إزاءنا سيارة صغيرة تحمل تمغة توزيع الخبز ، فشغلت المكان قرب السائق ، وبعد ذلك رحنا نلف وندور في مركز المدينة ، نلتقط أعضاء المجموعة الايطالية من أماكن مختلفة . ومن ثم وزعونا على خمس نقاط أخرى ، وبعد ذلك نقل كل منا في سيارة على حدة ، وفي نهاية المطاف التقينا من جديد في شاحنة صغيرة جديدة ، حيث كانت ترقد الكاميرات وأجهزة التسجيل . كان لدي انطباع ، وكأن ما أشارك فيه ليس تجربة جدية وخطيرة ، بل أقوم بدور في فلم عن الجاسوسية . وفي احدى مراحل التنقلات المتعددة اختفى عنصر الارتباط لابس البيريه ، بوجهه الشبيه بوجه المتآمر ، ولم أره منذ ذلك الحين أبدا . وقد احتل مكانه السائق المرح والدقيق ، جلست الى جانبه ، أما بقية أفراد المجموعة فقد جلسوا في صندوق الشاحنة .

وقال لي : - سآخذكم الآن في نزهة ، كي تستنشقوا هواء تشيلي البحري .

فتح جهاز الراديو بكامل طاقته ، وراح يلف في المدينة ويدور الى أن فقدت القدرة على معرفة مكاني ، ولكن حتى هذا لم يكفه ، فطلب منا أن نستكين ، ولم يفهم الايطاليون ، الموجودون في الخلف ما يقصد بهذه الكلمة العامية بالتشيلية ، فقمت بدور المترجم :

- ناموا .

فتساءلوا بدهشة : ننام ؟

فأكدت لهم : بالطبع نعم ، ارقدوا ، اغمضوا اعينكم ، ولا تفتحوها قبل أن أقول لكم .

وبين فواصل زمنية محددة كانت الشاحنة تتوقف ، ونسمع تمتمة غير مفهومة ، ومن ثم صوت السائق : «بخاطركم ، الى اللقاء» وأعتقد أنه كان يتحدث مع العناصر السرية الاخرى ، الذين كانوا يحرسون مفارق الطرق ، ويعطونه التعليمات بخصوص القسم المتبقى من الطريق . وفي احدى اللحظات حاولت أن أفتح عيني قليلا ، ظنا مني أنه لن يلاحظ ذلك . وهنا اكتشفت أنه ركز المرآة الخلفية بشكل يسمح له بالقيادة ومخاطبة عناصر الارتباط ومراقبتنا .

- انتبهوا : - قال محذرا - اذا خطر لأحد منكم أن يفتح عينيه عدنا ادراجنا ، وعلى النزهة السلام .

ولم يمض إلا بعض الوقت حتى توقفت الشاحنة الصغيرة .

وأسرع السائق في إصدار تعليماته : لا تفتحوا أعينكم . اخرجوا بهدوء ، تمسكوا جيدا ، كي لا يصاب أحدكم - لا سمح الله - بأذى .

نفذنا مطلبه ، وسرنا عبر ممر غضاري ضيق ، تارة نرتقي

تلا ، وأخرى نهبط سفحا ، واعتقد أن الغبش كان يخيم عليه ، وبعد فترة قصيرة فاحت رائحة السمك الطازج في الظلمة الدامسة الباردة ، واعتقدت أننا هبطنا الى فالبارايسو ، الى شاطيء البحر . وان كنت استبعد أن نكون قد قطعنا مثل هذه المسافة البعيدة في مثل هذا الزمن القصير . وحينما سمح لنا السائق بفتح أعيننا ، وجدنا أنفسنا ، نحن الخمسة ، في غرفة ضيقة ذات جدران عارية وأثاث رخيص ، ولكنه جديد . وأمامي مباشرة كان يقف شاب في لباس جيد ، بشاربين مزيفين ألصقا على عجل . ولم أتمالك نفسي عن الضحك ، وقلت له :

- لا داعي لهما فلا أحد يصدقهما .

وضحك بدوره ، ثم نزع شاربيه .

ذاب الجليد على الفور ورحنا نتبادل النكات ، ثم انتقلنا الى غرفة مجاورة ، حيث كان يرقد شاب ذو رأس مضمد . كان يبدو أنه يغط في نوم عميق . وهنا فقط أدركنا أننا موجودون في مستشفى سري ، ذي تجهيزات جيدة . أما الجريح فليس سوى فيرناندو لاريناس سيغيل ، وهذا الاسم يتصدر القائمة ، التي يبحث البوليس التشيلي عن أعضائها .

انه في الحادية والعشرين ، وهو من نشطاء جبهة مانوئيل رودريفيس الوطنية . ومنذ اسبوعين ، وبينما كان عائدا في الساعة الواحدة ليلا الى منزله في سانتياغو ، وهو أعزل ، طرق أربعة مجهولين باللباس المدني ، سيارته،كانوا مسلحين بالبنادق الحربية . وبدون أن يتفوه أحد منهم بكلمة ، ودون طرح أي سؤال ، أطلق أحدهم النار على زجاج السيارة ، نفذت الرصاصة من كتفه

الأيسر ، وأصابت رأسه ، وبعد ثمان وأربعين ساعة انتزعه أربعة من مقاتلي الجبهة الوطنية ، والسلاح بأيديهم ، من مستشفى عذراء نيف ، حيث كان يرقد فاقد الوعي وقد أقام البوليس حراسة مشددة عليه . ونقل على عجل إلى احدى مستشفيات الحركة ، وعددها أربع مستشفيات . وفي يوم اللقاء كان قد تماثل الى الشفاء ، وكان بمقدوره أن يجيب على أسئلتنا .

بعد عدة أيام من هذا اللقاء نظم لنا لقاء في مقر القيادة العليا للجبهة الوطنية - مع نفس التدابير الاحترازية ، شبه السينمائية . ولكن مع تباين جوهري واحد : لم يكن اللقاء في مستشفى سري ، بل في منزل وسط ، يغمره النور ، وينعم بالدفء ، وتذهلك مجموعة الاسطوانات لأشهر الملحنين ، والمكتبة الرائعة ، الغنية بالكتب المقروءة ، وهذا لا يصادف كثيرا . في البداية كنا ننوي تصوير أصحاب البيت[1]، وقد غطيت وجوههم ، وبعد تفكير ملي قررنا تمويههم باستخدام أساليب الاضاءة والراكورس ، وبالنتيجة - وكما يمكن التأكد من هذا بعد مشاهدة الفلم - ظلوا شبيهين بالناس ، ولكنهم على كل حال لم يبدوا بشكل مخيف ، كما هو الحال في اللقاءات التقليدية مع القادة السريين .

الفصل الرابع
في لجة العمل

ـ ١ ـ

بدأت الحلقة تضيق

بعد أن التقينا الشخصيات المختلفة ، التي تعمل في السر والعلن ، توصلنا مع ايلينا الى استنتاج مفاده أن الوقت قد حان لتعود الى نشاطها المعهود في اوربا ، حيث تقيم منذ عهد غير بعيد . كان عملها السياسي من المسؤولية بحيث أنه لا يجوز تعريضها للخطر دون ضرورة ماسة ، اضف الى هذا أن ما تراكم لدي من تجربة كان يسمح لي بانجاز القسم المتبقي من الفلم بدون مساعدتها .

وخشية أن تطرد مجموعات التصوير الاجنبية من تشيلي في أية لحظة . وتمنع من العمل ، ساعدتني احدى تنظيمات المقاومة في تشكيل مجموعة من السينمائيين الشباب العاملين في صفوفها . كان ذلك انجازا كبيراً فقد كان اعضاء الفريق الجديد يقومون بعملهم بسرعة وبنتائج باهرة ، لا تقل عن الاوربيين لا بل وكانوا يبزونهم نشاطا وحماسة ، لأنهم كانوا يعرفون ما يراد منهم ، إذ أكد لنا قادتهم السياسيون أن هؤلاء الناس موضع ثقة تماما ، وأنهم مدربون لمواجهة شتى المفاجآت . وفي النهاية وبعد سفر المجموعات الاجنبية ، انكبت هذه المجموعة على اعداد مجموعات جديدة . عمدت بدورها الى اعداد مجموعات أخرى . وفي الاسبوع الاخير كان تحت تصرفنا ست مجموعات سينمائية تشيلية ، كانت تعمل في وقت واحد في أماكن مختلفة . وبالاضافة الى هذا وذاك فقد ساعدتني هذه

المجموعات في الاقتناع ، من جديد ، بالتصميم الرفيع والروح العملية للجيل الشاب ، الذي يناضل بكل تؤدة وهدوء ، من أجل إنقاذ تشيلي مِن سيطرة الجنرالات .

وفي الأيام التي التقينا فيها قيادة جبهة مانوئيل رودريفيس الوطنية ، عادت الى سانتياغو مجموعة التصوير الفرنسية ، وقد نفذت البرنامج المطلوب بشكل رائع . كان عملها في غاية الاهمية لأن شمال البلاد يعتبر المنطقة التاريخية ، التي تشكلت فيها الاحزاب السياسية التشيلية . وهناك يمكن بشكل أفضل تقويم التواصل في التقاليد الفكرية والسياسية ، بدءا من لويس إيميليو ريكاباربن ، مؤسس أول حزب عمل في مطلع القرن الجاري ، أي قبل سلفادور الليندي . وفي هذه المنطقة أيضاً يوجد أحد أغنى مكامن النحاس في العالم ، وكان الانكليز قد بدأوا استخراجه في القرن الماضي ، وقد تزامن ذلك مع الثورة الصناعية ، وأعطى زخما لتكوّن طبقتنا العاملة ، ومن هنا ايضا بدأت الحركة الاجتماعية التشيلية ، وهي ، دون ريب ، الحركة الأهم في كل انحاء أمريكا اللاتينية . وحينما وصل الليندي سدة الحكم كان تأميم مناجم النحاس أهم اجراء يتخذه واكثرها خطرا . وكان الغاء هذا التأميم واحدا من اجراءات بيونشيت الاولى .

- ٢ -

البوليس يفقد الأثر

كان التقرير الذي قدمه جان كلود ، رئيس المجموعة الفرنسية ، عن عمل مجموعته ، في غاية التفصيل والاسهاب . وقد اضطررت لكثير من التركيز من أجل تصور ذلك كله على الشاشة : كان من المهم عدم الاخلال بوحدة الفلم ، فلم يكن بامكاني رؤية الفلم إلا بعد عودتي الى مدريد مع مجمل المادة . ولكن سيكون من الصعب آنذاك إدخال أية تعديلات .

لضرورات الأمن - جزيئا - وبدافع الاحساس البهيج أنك في تشيلي من جديد ، لم نكن نلتقي في مكان محدد ، بل رحنا نطوف المدينة طيلة الصباح - صباح خريفي آخر يلعب مثل هذا الدور في حياتي .

ففي ذلك الصباح تنزهنا في مركز المدينة وركبنا الباصات على الخطوط الأقل ازدحاما ، وشربنا القهوة في الاماكن غير المطروقة ، وتناولنا عطاءات البحر بشهية واحتسينا البيرة ، وحينما بدأ الليل يخيم كنا قد ابتعدنا عن الفندق كثيرا . مما دفعنا الى أخذ ميترو الانفاق .

وحين تذكرنا أن الفرنسيين هم الذين بنوا الميترو ، خطر لنا أن بوسع مجموعة سان كلود تصويره . كنا نناقش هذا الموضوع بالذات ، ونحن نقترب من محطة «بيدرو فالديفيا» ، وبينما كنا نرتقي السلم ، باتجاه المخرج ، شعرت«على حين غرة ، شعورا لا يخطىء ، أن ثمة

من يترصد حركاتنا . وبالفعل فقد تبينت أن شرطيا يرتدي الزي المدني يراقبنا ، حتى أن نظراتي التقت بنظراته .

كنت قد خبرت تمييز الشرطة في اللباس المدني ، وعلى الرغم من أنهم يعتقدون أنهم يلبسون كما الجميع ، فان بالامكان تمييزهم بفضل معاطفهم الزرقاء الداكنة ، التي لم تعد دارجة ، وبفضل تسريحتهم القصيرة ، كأنهم جنود أغرار . ولكن ما يفضحهم بالدرجة الأولى هو نظرتهم ، لأن التشيليين لا يتلفتون عادة يمنة ويسرة ، حينما يسيرون ، أو يركبون الباصات . ولهذا السبب فلم أكد اكتشف أن هذا الرجل ، عريض الكتفين ، لا يكف عن التحديق بي ، حتى بعد ان التقت نظراتنا ، حتى أدركت أنه شرطي . أدخل يديه في معطفه الجوخي ، ووضع سيجارة في فمه ، وزر عينه اليسرى بسبب الدخان ، وهو يقلد ، بدون مهارة ، التحري في الافلام السينمائية .

أعترف أنني ارتكبت خطأ لا يغتفر إذ نظرت اليه . ولكن لم يكن لدي خيار في ذلك ، فقد حدث «غصبا عني» ، بشكل غريزي. وبعد ذلك ، وانصياعا لنفس الغريزة العفوية ، ألقيت نظرة الى يميني ، وأخرى الى يساري ، فرأيت اثنين آخرين .

همست في أذن جان كلود : هيا قل لي أي شيء ، كلمني ، ولكن بدون إشارات ، ولا تتلفت يمنة أو يسرة .

أدرك جان كلود مرامي . وتابعنا ، وكأن شيئا لم يحدث ، طريقنا ، إلى أن وصلنا الى السطح . كان الوقت متأخراً ، ولكن الأمسية كانت أكثر دفئا واشراقا من الليالي السابقة ، كان الشارع

يغص بالناس ، العائدين الى البيت عبر شارع الأميدي . وهنا قفزت مبتعدا عن جان كلود ، وأنا أقول له :

ـ اختف . سأجدك فيما بعد .

اندفع باتجاه اليمين ، أما أنا فاختلطت بالجمهور ، الذي يتحرك في الاتجاه المعاكس . ومن ثم ركبت سيارة تاكسي ، كانت تمر من جانبي ، وكأنني قد طلبتها ، واذ ذاك رأيت رجال البوليس الثلاثة ، وقد استبدت بهم الحيرة . كانوا قد خرجوا لتوهم من المترو ، ولم يستطيعوا أن يقرروا من سيطاردون :

ـ جان كلود ، أم أنا . وفيما بعد ابتلعهم الجمهور . بعد أن قطعت أربعة أحياء خرجت ، وأخذت سيارة أخرى سارت بي بالاتجاه العكسي . وبعد ذلك غيرت السيارة مرتين ، إلى أن اطمأنيت الى أنه لم يعد بوسعهم اللحاق بي .

الى جانب الاتصالات التي قمت بها بمساعدة ايلينا . أقمت صلات عمل خاصة بي مع الاصدقاء القدامى ، الذين ساعدوني في تشكيل مجموعات التصوير التشيلية . وضمنوا لي حرية التنقل عبر «بوبلاسونيس» . كانت لويزا ، وهي امرأة جميلة أنيقة ، زوجها صناعي مشهور ، أول من بحثت عنه حال عودتي من كونسيبون .

عدو الديكتاتورية خلف مقود «بي ام دبل يو»

منذ أن كنا في الجامعة اشتركت مع لويزا في ممارسة العمل السياسي . وقد توطدت عرى صداقتنا ابان حملة سلفادور الييندي الانتخابية الاخيرة، التي اشتركنا فيها من خلال عملنا في قسم الدعاية . وبعد فترة قصيرة من وصولي تشيلي عرفت مصادفة أنها أصبحت شخصية بارزة في احدى الشركات ، التي تمارس نشاطها في مجال العلاقات الاجتماعية . لم استطيع من التغلب على الاغراء ، فاتصلت بها هاتفياً، دون أن أذكر اسمي، المهم أن أتأكد أنها هي بالذات . بدا لي الصوت الهادىء والواثق الذي أجابني وكأنه مألوف فعلا . ولكن ثمة ما أثار قلقي في صوتها . في اليوم ذاته جلست في المقهى في شارع أويرفانو ، ومن هناك يظهر باب مكتبها . وقد تلاشت شكوكي . فلم يقتصر الأمر على أن السنوات الاثنتي عشرة الماضية لم تترك عليها بصماتها ، بل على العكس زادتها أناقة وجمالا عما كانت عليه في الماضي . وعرفت أيضاً أنه لا سائق لديها . وان كان بوسعها أن يكون لها باعتبارها زوجة مثل هذا الانسان المسؤول ، وأنها تقود بنفسها السيارة الفارهة ، الفضية اللون ، ذات اللوحة B.M.W - 635 . أرسلت لها بطاقة بريدية من جملة واحدة «انطونيو هنا . ويريد أن يراك» . كانت لويزا تعرفني بهذا الاسم في سنوات الكفاح السياسي في الجامعة ، وكنت آمل أنها ستتذكره .

ولم أخطيء . ففي اليوم التالي ، وكانت الساعة الواحدة ظهرا ، انعطفت «سمكة القرش الفضية» على ناصية أبو كيندو ، حيث تقوم وكالة «رينو» . قفزت الى السيارة ، واغلقت الباب خلفي . أما لويزا فقد راحت تنظر إلى بذهول ، ولم تعرفني إلا بعد أن ضحكت وجاء صوتها : أنت مجنون .

فسألتها : وهل كنت تشكين في ذلك ؟

ودون أن اكتم عنها شيئا حدثتها عن السبب الذي دفعني الى القدوم إلى تشيلي سرا ، ورجوتها أن تساعدني في إقامة الصلات مع بعض الشخصيات ، وهذا ليس محفوفا بالخطر بالنسبة لها ، باعتبار أن طبقتها تتمتع بامتيازات الحماية . كل ذلك حدث في تلك الأيام ، حيث لم تكن قد حلت مسألة التصوير في «بوبلاسونيس» بسبب عدم وجود معارف لنا في الاوساط السياسية ، شملوننا بحمايتهم ورعايتهم . وهكذا فقد كنت أعلق الأمل غليها في العثور على بعض المعارف المشتركين ، منذ أيام الوحدة الوطنية ، والذين يعملون الآن في السر .

لم تكتف بالموافقة على ذلك بحماسة ، بل واستمرت على مدى ثلاث أمسيات ، تنقلني الى الاجتماعات السرية ، التي كانت تعقد في تلك الاحياء من المدينة ، التي لا صعوبة في الوصول اليها في مثل تلك السيارة الفارهة .

وقالت لي مبتهجة : لا يمكن أن يخطر ببال أحد أن عدو الديكتاتورية يمكن أن يجلس خلف مقود B.M.W 635 .

ولهذا السبب بالذات لم يلق القبض علي ذات أمسية . حينما

كنت واليزا في اجتماع سري ، واطفئت الأنوار على حين غرة . أكثر من مرة كانت قوات المقاومة قد قطعت الكهرباء في المدينة في ذلك الاسبوع . وكان منظمو الاجتماع قد اخطروني بذلك مسبقا . في البداية ستبقى الكهرباء مقطوعة لمدة أربعين دقيقة ، ومن ثم لمدة ساعة ، وأخيرا ، في المرة الثالثة سيستمر قطعها عن العاصمة سانتياغو لمدة يومين أو ثلاثة . وهكذا فقد حدد موعد الاجتماع في ساعة مبكرة ، لأن أجهزة التنكيل كانت تصاب بالهستيريا حال انقطاع التيار الكهربائي ، فتشن حملات المداهمة الوحشية في الشوارع . وكان علينا أن لا ننسى نظام منع التجول . ولكن حدث أن ظهرت وجهات نظر متباينة في نهاية الاجتماع ، واطفئت الانوار ، والمسألة الرئيسية لا تزال معلقة .

قرر القادة السياسيون ، الموجودون في الاجتماع ، أن علينا ، أنا ولويزا ، أن نرحل حال عودة الضوء ، بينما يتفرق الباقون بشكل افرادي . وهذا ما حدث فعلا ، اذ لم يكـد النرر يغمر المكان حتى انطلقنا عائدين ، سالكين طريقا ترابية . تتلوى على سفح الجبل .

وعلى حين غرة برزت امامنا ، قرب أحد المنعطفات عدة سيارات بوليس . كان العملاء ، بالزي المدني ، مسلحين بالبنادق الآلية ، أرادت الويزا أن تضغط على الفرامل ، ولكنني اعترضت على ذلك ، وقلت لها :

ـ تابعي طريقك ولا تقلقي . تحدثي واضحكي ، ولا تتوقفي إلا حين يأمرونك . ان وثائقي على ما يرام .

بعد أن قلت لها ذلك ، وضعت يدي على جيبي ، فشعرت

وكأن سطل ماء بارد صب على رأسي ، فلم أجد حافظة الوثائق ، التي تثبت هويتي . وهنا وقف أحد العملاء على قارعة الطريق وأشار لنا بيده ، ولم تجد إليزا مندوحة من الوقوف . سلط بيل الجيب على وجهينا ، ومن ثم على المقعد الخلفي . ودون أن يقول كلمة واحدة سمح لنا بالسير . كانت اليزا على حق ، فلا يمكن أن يخطر ببال أحد أن أناسا يشكلون خطرا على النظام يمكن أن يمتطوا مثل هذه السيارة .

وفي هذه الأيام بالذات تعرفت على حماة لويزا (سأسميها كليمينسيا ايساورا) ، وهي أرمل ، تجاوزت السبعين . فعلى غير موعد اقتحمنا منزلها الفاخر ، ذي الرقم ٧٢٧ ، في الحي الارستقراطي ، كانت حين دخولنا تشرب الشاي مع البسكويت الانكليزي ، بينما كانت الطلقات تتردد في غرفة الضيوف ، ويراق الدم أنهارا على شاشة التلفزيون . طلبت منها أن تساعدني في العثور على خمسة اشخاص في أحياء من المدينة لا أستطيع الوصول اليها (لم اكن أريد البحث عنهم عبر الاقنية العادية للمقاومة) .

ثم ان وساطة كليمينسيا إيساورا كانت ضرورية لي لمعرفة مزاج أصحابي القدامى ، قبل ان أكشف لهم أنني موجود هنا في تشيلي ، وأحتاج الى مساعدتهم . لست أدري بالتفصيل كيف تمكنت من تنفيذ ما طلبت منها ، ولكنني أعرف أنها أمضت عدة أيام تطوف الأحياء في الضواحي ، تسأل وتستفهم ، معتمدة فقط على نتف من المعلومات التي محا الزمن الكثير منها من ذاكرتي . وبعد اسبوع عثرت على ثلاثة اشخاص من الاشخاص الخمسة ، وأحيت لهم في المنزل

رقم ٧٢٧ غداء ، لا يقل في شيء عن أي حفل استقبال . وقد ساعدني اصدقائي ، الذين استعدتهم من جديد ، في تشكيل أول مجموعة تصوير تشيلية ، والقيام بالاتصالات الضرورية ، التي ضمنت لي التصوير في «بوبلا سونيس» .

بينما كانت كليمينسيا ايساورا تقوم بمهمتها رحت أستغل وقت الفراغ من التصوير من أجل اقامة الصلات مع الاوساط الرفيعة بمعاونة لويـزا . وفي ذات أمسية ، وبينما كنا جالسين في مطعم فاخر بانتظار الموفد ، الذي لم يظهر ، دخل القاعة جنرالان يرتديان صدريتين من الأوسمة . وقد حيتهما لويزا من بعيد باشارة ودية ، جعلت الشكوك الكالحة تتململ في داخلي لا اراديا . اقترب أحد الجنرالين من طاولتنا ، وأمضى عدة دقائق واقفا قرب رفيقتي ، يبادلها النمائم عما يجري في المجتمع الراقي ، ولم يولني أي اهتمام . وحينما عاد إلى طاولته أخبرتني لويزا للمرة الاولى ، بصوت منخفض ، أنها تقيم علاقات جيدة مع عدد من كبار العسكريين ، وغالبا ما تلتقي بهم بسبب طبيعة عملها .

وترى لويزا أن أحد العوامل الكامنة وراء استمرار بينوشيت في السلطة يعود الى أنه أحال على التقاعد العسكريين من جيله وعين في المراكز القيادية العليا ضباطا جددا ، كانوا أدنى منه بكثير في سلم المناصب ، وهم ليسوا أصدقاءه حتى أنهم لا يعرفونه عمليا ، ولذا فان أغلبهم ينفذ أوامره بحذافيرها . وفي الوقت نفسه فان هذا الجناح هو «كعب أخيل» ، لأن الكثيرين من الضباط الجدد لا يعتبرون أن لهم ضلعا لا في مقتل الرئيس الليندي ولا في العديد من حمامات

الدم . ولا في سياسة النهب التي تمارسها السلطات الحاكمة . وهم يعتبرون أن أيديهم نظيفة . وأن القدر أعدهم للتفاوض مع الشخصيات المدنية حول العودة السلمية الى الديمقراطية .

اذ لاحظت الدهشة ترتسم على وجهي عمدت لويزا الى صب الزيت في النار : على الاقل هناك واحد من الجنرالات ، الذين تعرفهم ، على استعداد لأن يتحدث على الملأ عن الخلافات الداخلية العميقة في صفوف القوات المسلحة .

•

المخاطرة تصبح مألوفة ، ومع ذلك...

في ذات يوم فاجأني جان كلود بخبر مشؤوم . ففي نبأ لوكالة «فرانس بريس» من سانتياغو يحمل تاريخ الأسبوع الماضي . ونشر في باريس ، ان البوليس اعتقل ثلاثة من افراد مجموعة التصوير الايطالية ، العاملة بموجب عقد مؤقت في تشيلي ، وهم يصورون في منطقة «لاليغوا» بدون اذن .

حال خروج جان كلود انطلقت أبحث عن الايطاليين ، وقد وجدتهم أحياء يرزقون في المكان الذي كان عليهم أن يكونوا فيه . كانت غراتسيا قد عادت من أوروبا ، وانخرطت في العمل من جديد . وقبل نبأ «فرانس بريس» تولد لدى غراتسيا انطباع أن ثمة من يراقبهم . والاكثر من هذا أنهم بعد عودتهم الى الفندق ذات مرة ، بعد حفل استقبال في السفارة الايطالية ، بدا لهم ، وكأن ثمة من نقب في الأوراق في الحقائب ، وإن كانت كل الاشياء موجودة . صحيح أن ذلك يمكن أن يكون قد خيل اليهم بسبب الخوف ، ولكن لا يستبعد أن يكون تلك الاشارة الأولى . وبشكل عام فقد كان للظن بأن السحب تتكاثف من حولنا ما يبرره .

في تلك الليلة لم يغمض لي جفن ، وأنا اكتب رسالة لرئيس المحكمة العليا ، أخبره فيها بعودتي غير القانونية الى البلاد ، كي تكون هذه الرسالة معي في حال اعتقالي . والواقع أنني لم أتوصل الى

مثل هذا القرار فجأة ، بل بعد تفكير طويل ، وكلما كانت الحلقة تضيق كانت هذه الرسالة تصبح أكثر ضرورة . في البداية ، وكما الغريق ، يلقي في البحر رسالة في زجاجة ، فكرت بالاكتفاء بجملة درامية واحدة . ولكن ما ان بدأت الكتابة حتى أدركت أن من واجبي أن أعطي تصرفي إيضاحاً سياسياً وانسانياً ، لأنه كان علي ، الى حد ما ، أن أعبر عن مشاعر آلاف وآلاف التشيليين ، الذين يرزحون تحت نير التشرد ، أكثر من مرة بدأت الكتابة ، وفي كل مرة كنت أمزق ما اكتب ، وأنا جالس في غرفة مظلمة مقفولة في وطني الام مع بقائي ، على الرغم من هذا ، منفياً . حينما انتهيت كانت أجراس الكنائس قد دعت المصلين الى الصلاة منذ فترة طويلة ، محطمة صمت نظام منع التجول .

وبكل صعوبة بدأت خيوط الشمس الأولى تحاول اختراق سجف الضباب الكثيف في تلك الليلة الخريفية التي لا تنسى . وقد كتبت في رسالتي إلى رئيس المحكمة العليا : لا استطيع الاعتراف بشرعية اولئك الذيم انتهكوا الدستور والقوانين ، ونكلوا بالشعب الاعزل ، ووأودوا شبابه . والذين لا يزالون مستمرين في القتل حتى يومنا هذا . . . انني أضع نفسي بين يديك ، وأنا على ثقة أن المحكمة العادلة لا يمكن أن لا تعيد لي حقي الشرعي في المواطنة . أضع تحت تصرفك دليل ادانتي ، انه بالتحديد افلامي التي صورتها إن في تشيلي أو خارج حدودها .

وللحقيقة فانه كان لدي من الاسباب ما يكفي للقلق من ان تكون لدى البوليس معلومات حول قدومي الى تشيلي ، وحول طبيعة العمل الذي نقوم به هنا . فها قد مضى علينا في سانتياغو قرابة

شهر ، وكان افراد مجموعات التصوير ظاهرين للعيان أكثر مما تقتضيه مصلحة القضية ، فقد أقمنا صلات مع أناس كثيرين ، وكان الكثيرون يعرفون انني أنا المشرف على تصوير الفلم . وقد بلغ تآلفي مع مظهري الجديد لدرجة أنني نسيت الحديث باللهجة الاورغوائية ، وبشكل عام لم يكن تصرفي شبيهاً بتصرف المناضل السري الحذر .

في البداية كانت لقاءاتنا تجري في السيارات ، التي كانت تلف بنا وتدور في المدينة ، بدون وجهة محددة ، والتي كنا غالباً ما نستبدلها بعد أربعة ـ خمسة أحياء ، ولكن هذا الاسلوب من التعقيد بحيث أننا نقرب الخطر من حيث لا نرغب .

أصبح ركوب الخطر مألوفاً . وشيئاً فشيئاً بدأ يقل لجوؤنا الى الجمل المجازية أثناء لقاءاتنا . فلا نكاد نسلم على عنصر الارتباط حتى نبدأ معه حديثاً ودياً ، ولم نكن ننتقل الى جوهر الأمر مباشرة ، بل كنا نقوم قبل ذلك بمناقشة الوضع السياسي طويلاً ، ونتحدث عن أخبار السينما والادب ، عن المعارف المشتركين ، الذين كنت أرغب في رؤياهم ، على الرغم من أنني حذرت من مغبة مثل هذا الاغراء .

ولكن حينما ظهرت بوادرالشك في أن البوليس وقع على أثرنا كان الحد الأدنى من التعقل يتطلب منا أن نغير اسلوب عملنا. كان قد بقي علينا تصوير قصر «لامونيدا» من الداخل ، وكنا بانتظار الاذن بذلك . ولسبب لا نعرفه تأخر هذا الاذن ، كما كنا ننوي التصوير في «بويرتو مونتي» وفي «الوادي المركزي» . كنت أنوي الاشراف على التصوير في «الوادي المركزي» لأنه مسقط رأسي ، ففيه ولدت ، وفيه أمضيت سنوات طفولتي . وكانت والدتي لا تزال تقطن

هذا «الوادي» ، في قرية «باليلا» الصغيرة ، ولكن سبق أن تلقيت تحذيراً قاطعاً من زيارتها أثناء وجودي هنا لنفس الاسباب الامنية .

كان أول ما قمت به هو اعادة تنظيم عمل المجموعات الاجنبية ، بحيث تستطيع ، مع ادنى احتمال للمخاطرة ، إنجاز مهمتها بالسرعة الممكنة والعودة الى بلدانها . فقط المجموعة الايطالية كان عليها أن تبقى في سانتياغو لمرافقتي الى «لامونيدا» . أما المجموعة الهولندية فكانت تنتظرني في «بويرتو مونتي» ، لكي نقوم معاً بالتصوير قرب الدائرة القطبية ، ومن ثم مغادرة البلاد الى الارجنتين ، عن طريق نقطة الحدود «باريلوتيش» . كان من المفروض أن يكون الفلم جاهزاً بنسبة ٨٠ بالمئة لدى مغادرة المجموعات الثلاث ، وأن يكون الفلم المصور قد أرسل الى أناس موثوق بهم في مدريد ، من أجل تظهيره . نفذت «ايلي» هذه المهمة بشكل رائع ، وحينما عدت الى اسبانيا لم يبق علي إلا عملية المونتاج .

ونظراً للموقف المريب والغامض وجدت إن أفضل ما نقوم به أنا وفرانكي ، هو مغادرة البلاد نهائياً في الظاهر ، والعودة بعد اتخاذ كل تدابير الحيطة اللازمة . ومن هذه الناحية أعطت سفرتنا الى «بويرتو مونت» فرصة رائعة ، اذ أن من السهل الوصول الى هناك ، سواء من الارجنتين أو من تشيلي . وقد انتهزت هذه الفرصة . فبعد أن طلبت من المجموعة الهولندية انتظاري هناك ، وحددت لاحدى المجموعات التشيلية موعد لقاء بعد ثلاثة أيام من ذلك ، في وادي ، «كالتشاغوا» ، الذي يقع في وسط البلاد ، ركبت الطائرة وفرانكي الى بوينس آيرس .

ولكي يبدو كل شيء أقرب ما يكون من الواقع ، نقلتنا

كليمينسيا ايساورا في سيارتها الخاصة ، الى مطار «بودا أويل» ، ومثلت مشهد الوداع أحسن تمثيل ، ولم تبخل لا بالقبلات ولا بالدموع . وهكذا فقد غادرنا البلاد بشكل علني . على الرغم من أن عناصر أمن المقاومة كانوا يراقبوننا ، كي يحذروا من يلزم في حال اعتقالنا . ان هذه الخطوة من شأنها أولاً أن تؤكد لنا أننا لسنا على القائمة الخاصة في المطار ، وتسمح لنا ـ ثانياً ـ بتسجيل مغادرتنا في حال قيام الشرطة بالتحقيق في الأمر لاحقاً .

في بوينس آيرس قدمت جواز سفري الحقيقي ، غير راغب في القيام بأي سلوك غير شرعي ، في هذا البلد الصديق . ولكنني وأنا أحشره في شباك مكتب الهجرة والجوازات فاتتني ناحية هامة : كانت الصورة في جواز سفري قد التقطت قبل عهد بعيد من تحولي ، وكانت لا تشبهني بشكلي الحالي : بأهدابي المنتوفة ، صلعتي الاعرض ونظارتي . لقد سبق أن حذروني من أن اكتساب الشخصية الاصلية لا يقل صعوبة عن تقمص أخرى ، ولكنني نسيت هذا في اللحظة البالغة الاهمية . ولحسن الحظ أن الموظف الارجنتيني لم ينظر الى وجهي ، فبقيت أعاني بصمت من هذه الصدمة ، فأنا عاجز عن أكون أنا ، حتى حينما تكون لدي كل المبررات لذلك .

بقي فرانكي في بوينس آيرس ، كي يقوم ، حسب تعليماتي ، بالاتصال بـ«ايلي» هاتفياً ، ومناقشة التفصيلات العديدة للمرحلة الختامية من العمل ، ويتسلم النقود ، التي ارسلتها لنا من مدريد . وهكذا افترقنا على أمل اللقاء في سانتياغو . ودون أن أغادر الاراضي الارجنتينية طرت الى «مندوسا» لالتقاط عدة صور لـ«الكورديلير» التشيلي ، من أجل الفلم . كان القيام بذلك في غاية السهولة ، اذ

أن بالامكان الانتقال من «ميندوسا» الى تشيلي عبر نفق ، حيث مركز الحدود فيه في منتهى التساهل . قطعت الحدود سيراً على قدمي لوحدي ، ليس معي سوى الكاميرا الخفيفة ـ ١٦ ملم . وبعد أن صورت في الجانب الآخر كل ما أردت ، عدت أدراجي في سيارة الشرطة التشيلية ، فقد أشفق سائقها على «المصور الاورغوائي المسكين» ، حين رأى أن لا وسيلة نقل تقله الى الارجنتين .

ومن «باريلوتشي» أقلعت سفينة صغيرة عتيقة محشوة بالسواح من الارجنتين والاورغواي والبرازيل وبالتشيليين العائدين الى وطنهم ، نقلتنا الى الحدود . أما بقية الطريق حتى «بويرتا مونت» فقد اجتزناها على مركب تحطم زجاج نوافذه ، فكانت الريح القطبية تعوي فيه كقطيع من الذئاب ، ولم يكن ثمة من ملاذ تحتمي فيه من البرد القارس ، ولا تأكل شيئاً ولا تدفيء جسمك بفنجان قهوة ، أو قدح من الخمر .

كانت حساباتي في مكانها . فحتى لو سجل البوليس سفري من المطار فمن رابع المستحيلات أن يخطر له أنني سأدخل تشيلي في اليوم التالي في نقطة تفصلها عن سانتياغو ألف كيلومتر .

قبيل وصولنا مركز الحدود طاف أحد طاقم المركب على الركاب ، وجمع ما لا يقل عن ٣٠٠ جواز سفر . وقد ألقى عليها رجال المخفر نظرة عاجلة . حتى أنهم لم يمهروها بأية أختام . صحيح أن هذا لا ينسحب على جوازات سفر التشيليين ، فقد كانت بانتظارهم قائمة طويلة من الأسماء المحظر عليها دخول تشيلي . كانت هذه القائمة معلقة على الجدار أمام المفتشين . أما بالنسبة للباقين ، بمن فيهم أنا ، فقد جرى اجتياز الحدود بسهولة تامة .

في بويرتو ـ مونت كانت المجموعة الهولندية بانتظاري . وقد وقع اختيارنا على التصوير هناك ، ليس لمجرد جمال الطبيعة المحلية الذي لا يوصف ، بل لدور المنطقة في أحداث التاريخ القريب . حيث كانت مسرحاً للكفاح المستمر ، ففي عهد ادواردو فري ، الرئيس الذي سبق الليندي ، ابتعد ممثلو الاوساط التقدمية عن الحكومة بسبب أعمال التنكيل الوحشية هناك . لقد أدرك الديمقراطيون اليساريون ان مستقبلهم ومصير البلاد كلها يتوقفان على الوحدة ، وبدأت المسيرة السريعة والمطردة ، التي انتهت بانتخاب سلفادور الليندي . بعد انتهاء التصوير في بويرتو مونت ، وبالتالي انجاز خطة التواجد في الجنوب ، سافرت المجموعة الهولندية الى بوينس آيرس ، عن طريق باريلوتشي ، مصطحبة كمية كبيرة من المادة المصورة ، بغية تسليمها الى ايلي في مدريد ، أما أنا فقد توجهت لوحدي الى تالكا ، حيث استأجرت سيارة الى سان فيرناندو ، الواقعة في مركز كولتشاغوا .

الفصل الخامس

المشهد الاخير

-١-

حينما يكون الاغراء كبيرا . . .

اتفقت مع المجموعة التشيلية على اللقاء في منتصف الحادية عشرة صباحا على جسر «ماكيس» . . وصلت مكان اللقاء في الوقت المحدد . وكان قدومي من جهة الضفة اليمنى . وهنا اكتشفت أن الكاميرات منصوبة على الضفة المقابلة .

واذ رأيت أن المصور لاحظني عبر الفيديو الكشاف ، خرجت من السيارة ، وقطعت الجسر ببطء ، كي يتمكن من تصويري ، وسلمت على أفراد المجموعة واحدا واحدا . كان على رأس المجموعة المدعو ريكاردو ، وكان أكبرهم سنا ـ ٢١ عاما ـ فكان الجميع ينادونه باسم «العجوز» .

وهناك رحنا ، ونحن متكئين على حاجز الجسر ، نناقش برنامج التصوير ، وبدأنا تنفيذه للحال .

ان وادي سان فيرناندو عبارة عن منطقة زراعية شاسعة وكان سكانها ، وهم فلاحون تحولوا على مر الزمن الى عبيد أرقاء ـ قد حصلوا على حقوقهم المدنية للمرة الأولى في عهد الحكومة الوطنية ، وفي الماضي كانت هذه المنطقة حصن الطغمة الاقطاعية ، التي أثرت على نتائج الانتخابات عن طريق أصوات أرقائها الخانعين . وفي ظل الديمقراطيين المسيحيين جرى هنا برئاسة ادواردو فري أول اضراب فلاحي كبير . وقد اشترك فيه سلفادور اليندي شخصيا . وفيما بعد

قلم البندي . أثناء وجوده وراء دفة الحكم ، بحرمان الاقطاعيين من امتيازاتهم الزائدة ، ونظم الفلاحين في تعاونيات يسودها النشاط والوئام . أما اليوم ، وكرمز للعودة إلى الخلف ، فان مقر بينوشيت الصيفي يقع في الوادي المركزي .

لم ننجز العمل حتى خيم الظلام . وكان الوقت المتبقي للوصول الى سانتيانمو / ١٤٠ كم/ قبل بدء موعد منع التجول قليلو جدا . انطلقت المجموعة في طريق العودة ، وبقيت مع ريكاردو لوحدنا . جلس ريكاردو وراء مقود سيارتي ، وانطلق بنا ، وقد قطعنا مسافة طويلة ، حيث وصلنا شاطىء البحر . وقد حددنا أماكن التصوير ليوم الغد . كنا غارقين في العمل لدرجة أننا مررنا بأربعة مراكز بوليس ، دون أن نوليها أي اهتمام . ومع ذلك فحين اجتياز المركز الأول قمت ، من باب الحيطة ، بخلع ثياب ميغيل ليتين غير الرسمية . ومن جديد عدت رجل الأعمال الاورغوائي . حل منتصف الليل دون أن ننتبه لذلك . اكتشفنا ذلك على حين غرة . بعد انقضاء نصف ساعة على بدء موعد منع التجول ، والواقع أن ذلك أثار قلقنا فعلا . وهنا اوعزت لريكاردو أن ينعطف عن الطريق العام ، حيث انطلق عبر طريق ترابية ، كنت أذكرها جيدا لكانني سرت فيها يوم البارحة . ومن ثم طلبت منه الانعطاف الى اليسار ، وبعد اجتياز الجسر ، الانعطاف نحو اليمين ، فاطفاء الانوار ، والسير إلى الأمام ، عبر طريق صعب ، غني بالمنعطفات والمنحدرات الحادة . بعد خروجنا من هذه المتاهة قطعنا القرية النائمة ، مما أزعج الكلاب المحلية ، التي قامت بدورها بايقاظ بقية الحيوانات ، توقفنا

لدى البيت الذي تقطنه امي .

كنت مضطربا بسبب رؤية الأماكن المحببة ، لدرجة انني قفزت من السيارة قبل توقفها . سرت عبر الممر الخاوي ، وقطعت الباحة المظلمة ، وكان الكلب الاليف الوحيد الذي صادفته في طريقي . وقد راح يتمسح بقدمي ، ولكنني تابعت طريقي ، ولم أصادف كائنا حيا . ومع كل خطوة كانت الذكريات القديمة واللحظات السعيدة والروائح المنسية تحيط بي من كل جانب . في نهاية الممر الطويل فتحت الباب المؤدي الى غرفة ذات ضوء خافت ، فرأيت أمي .

- يا للشيطان ان أحدا لا يرد التحية في هذا البيت .

وهنا نهضت والدتي من مكانها وهي تقول :

- لا بد أنك صديق أولادي ، دعني أضمك .

فقلت لها ، وأنا احدق في عينيها :

- تمعني في جيدا يا كريستينا فأنا ولدك

عادت تتفحصني من جديد ، ولكنها لم تستطع التعرف علي :

- كلا لا أعرف من تكون .

فقلت لها وأنا أكاد انفجر من الضحك :

- كيف لا تعرفينني . انني ابنك ميغيل .

ومن جديد رفعت عينيها ، وراحت تنظر الي . وفجأة اصفر لونها ، وكان علي أن أسندها كي لا تقع .

كانت أمي تكاد ترقص فرحا لعودتي ولكن موضة ثيابي أثبطت عزيمتها : لقد كنت في ثياب الصعاليك أفضل بنظرها مني الآن . . فقد قالت لي :

ـ انك تشبه القس .

لم أذكر لها سبب هذا التغير في مظهري ، كما لم أحدثها عن كيفية قدومي الى تشيلي ، والغرض من ذلك . كانت تعتقد أنني عدت بشكل قانوني . ولقد آثرت أن لا أخبرها بشؤوني كي لا أثير قلقها ، وكي لا اعرضها للمخاطرة بالطبع . . .

في هذه المرة كانت العودة الى سانتياغو عودة الى الأفكار المقلقة . فقد كان من الواضح أن الدائرة من حولنا تزداد ضيقا . وكانت «مسيرة الجوع» قد قمعت بقسوة وحشية . وقد تعرض بعض أفراد مجموعاتنا للضرب على يد البوليس . وتحطمت احدى كاميراتنا . كان الناس ، الذين غالبا ما نلتقي بهم بسبب طبيعة العمل ، يعتقدون أننا برحيلنا آنذاك لم نتمكن من ذر الرماد في عين أحد . حتى كليمينيا ايساورا كانت على قناعة من أننا دراويش ساذجين ، وجدنا نفسنا في عرين الاسود . كان ذلك هو المزاج السائد آنذاك ، وفجأة تلقت المجموعة الايطالية خبرا مفاده أن الأذن قد صدر لها بالتصوير في لا مونيدا ، وأن هناك من سينتظرها في القصر في الساعة الحادية عشرة من صباح الغد .

لم يكن بالامكان التخلص من فكرة أن هذا اللقاء عبارة عن فخ الموت . بالنسبة لي كنت على استعداد لركوب المخاطر ، ولكن هذا يعني تحمل مسؤولية كبيرة اذا ما أرسلت الايطاليين الى قصر الرئاسة قبل أن اقتنع أنه ليس مصيدة . ومع ذلك فقد وافقوا على الذهاب الى هناك على مسؤوليتهم ، وهم يعون مدى الخطر الذي يتهددهم . أما فيما يتعلق بالمجموعة الفرنسية فلم يكن ثمة/داع

لبقائها في سانيتاغو . أجريت لقاء عاجلا مع أفرادها ، واوعزت لهم بمغادرة تشيلي على أول طائرة ، مصطحبين معهم المادة التي لم نتمكن من ارسالها الى مدريد . وقد سافروا في اليوم نفسه ، وبالتحديد في اللحظات التي بدأت فيها المجموعة الايطالية ، وكنت على رأسها ، عملية التصوير في مقر بينوشيت .

ـ ٢ ـ

لقاء مع بينوشيت وجها لوجه

قبل التوجه الى «لامونيدا» سلمت فرانكي رسالة باسم رئيس المحكمة العليا . وكنت أحملها معي منذ عدة أيام . كما تركت له أرقام الهواتف ، التي زودتنا ايلينا بها للحالات الطارئة . وقبل الحادية عشرة بربع ساعة فارقناه على ناصية شارع «بروفيدينسيا» ، حيث انضممت الى المجموعة الايطالية ، واتجهنا ناحية القصر. والمفارقة الأخيرة أنني في هذه المرة نزعت قناع رجل الأعمال الاوراغوائي ، وارتديت الجينز ، وسترة خشنة مبطنة بفرو الارانب . اتخذت هذا القرار في اللحظة الاخيرة أما السبب فهو التالي : في الوقت الذي درست فيه كل وثائق غراتسيا الصحفية ، وأوغو المصور ، وغفيد ومهندس الصوت ، دراسة دقيقة وشاملة ، لم يطلب من مساعديهم حتى إبراز هوياتهم ، على الرغم من ورود أسمائهم في طلب الحصول على الأذن بالتصوير . وقد ساعدني ذلك في ايجاد الحل : دخلت القصر بصفة مساعد مشرف الاضاءة ، وهكذا فقد كنت مثقلا بالأسلاك والمرايا العاكسة .

بكل هدوء صورنا يومين كاملين تحت إشراف ضابطين شابين مهذبين ، كانا يتناوبان على مراقبتنا . رحنا نهتم بكل ما يمت بصلة الى الترميم ، لأن غراتسيا كانت تلخص بكل نزاهة كل ابداع تويسكي وغيره من المعماريين الايطاليين في تشيلي . كي لا يراود أيا

كان الشك في أن هدف فلمنا هو هذا ، وهذا بالذات .

وقد مر الضابطان ، اللذان كانا يعملان معنا ، بلحظات صعبة ، حينما طلبنا منهما أن يطلعانا على النسخة الاصلية من وثيقة الاستقلال ، التي ظلت لسنوات طويلة معروضة في قاعة مجلس الوزراء ، ولكنها ، كما نبا الينا ، اتلفت أثناء قصف القصر . ولكنهما لم يعترفا بذلك ، ووعدا بالحصول لاحقا على إذن خاص لتصوير هذه الوثيقة . بيد أن هذه الـ «لاحقا» لم تحل .

في اليوم الثاني من التصوير ، وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة صباحا ، أحسسنا أن في الجو شيئا ، وسمعنا وقع الاقدام ، وقعقعة النياشين الحربية . وطرأ تغير حاد على الضابط مرافقنا ، فقد أمر باشارة فظة إطفاء الانوار ، والتوقف عن التصوير . ووقف في وجهنا حارسان /باللباس المدني/ ، وهما على استعداد للتدخل في حال تابعنا التصوير . ولم نفهم ماذا يجري . إلى أن شاهدنا الجنرال آوغستو بينوشيت بلحمه ودمه ، يمر من جانبنا . كان وجهه مخضر اللون ، مترهلا . كان يتجه ناحية مكتبه ، ومعه مرافقه ومساعداه .

كان أوغو ، واصبعه على زناد الكاميرا ، يقف جامدا ، لكأنه رأى قدره بأم عينيه . وفيما بعد قال لنا : لو أن أحدا كان ينوي قتله لاستطاع ذلك بكل سهولة .

بعد انجاز العمل في «لا مونيدا» أخذت المجموعة الايطالية ما تبقى من المواد المصورة ، وغادرت تشيلي بدون عائق . في الفندق وجدت رسالة عاجلة من فرانكي : «نقلت حقائبك الى الغرفة رقم ٧٢٧» . كان كل شيء واضحا . كنا نستخدم هذا الرقم أنا وفرانكي

من أجل التغطية ، حين نقصد منزل كليمينسيا إيساورا . ان قيامه بنقل اغراضي الى هناك ، ومغادرته الفندق على عجل ، يعني أن الدائرة قد ضاقت تماما . وقد هرعت الى هناك ، وأنا أضرب اخماسا لأسداس ، وفي الطريق استبدلت سيارات التاكسي ووجهتي عدة مرات ، وحين وصولي وجدت كليمينسيا ايساورا تشاهد التلفزيون . كانت تشاهد فلماً لهيتشكوك ، بكل استرخاء .

-٣-

عليك ، إما أن ترحل ، وإما أن ترقد في الحضيض

ان ما أبلغتني إياه عن لسان فرانكي لا يحتاج الى تفسير ، فهو واضح وجلي . ففي هذا اليوم جاء مخبران ، يرتديان الزي المدني ، الى الفندق ، وطرحا بعض الاسئلة عنا ، ونقلا المعلومات المتعلقة بنا من بطاقات التسجيل . هذا ما ذكره البواب لفرانكي ، الذي تظاهر أنه لا يولي هذه الواقعة أي اهتمام . ودون أن تبدو عليه ذرة من القلق ، دفع الحساب ، وطلب من البواب استدعاء سيارة تاكسي ، تقله الى المطار الدولي ، وشد على يديه وأعطاه اكرامية سخية لدرجة غير معقولة .

كانت كليمينسيا ايساورا قد جهزت لي غرفة النوم . حتى أنها صرفت الخادمة والسائق كى لا تكون للجدران آذان ولا للمرآة عيون . لقد اكتشفت في سن الثانية والسبعين أن رسالتها الحقة هي الكفاح المسلح ، النشاط السري ، والخطوات الجريئة والحازمة ، التي تدخل على قلبها الحبور .

وقالت لي ، الأفضل أن يثقب جسمي الرصاص في المعركة ضد «ميليكوس» (يطلق هذا اللقب التحقيري على الجنرالات في تشيلي ـ الناشر/ ، على أن يتفسخ جسمي في السرير بسبب كليتي المريضتين .

جاء فرانكي في صباح اليوم التالي ، وقد استأجر سيارة من

طراز آخر ، غير تلك التي كنا نستأجرها سابقا . كان يحمل لي رسالة قاطعة جاءتني من ثلاثة مصادر مختلفة : «عليك إما أن ترحل ، وإما أن ترقد في الحضيض» . كان الخيار الثاني ، الذي يعني أن علي أن أختبيء في مكان ما ، والتخلي عن العمل لا يناسبني أبدا . وكان فرانكي يشاطرني هذا الرأي . ولذا فبالكاد استطاع الحصول على آخر بطاقتي سفر بالطائرة ، التي تقلع اليوم الى مونتيفيديو .

بدأ الفصل الأخير . وكنت البارحة قد صرفت المجموعة التشيلية الأولى ، واوعزت لها بحل بقية المجموعة . . وسلمت ممثل المقاومة بكرات العرض الاخيرة ، وهي ثلاث ، من الشريط ، على أن يتم إخراجها من البلاد بالسرعة القصوى . وقد نفذوا هذه المهمة بنجاح ، فحينما وصلنا مدريد ، بعد خمسة أيام ، وجدنا أن ايلي قد استلمتها . لقد جلبتها الى البيت راهبة شابة جذابة ، لم تقبل البقاء لتناول طعام الغداء ، لأن هناك ثلاث مهام سرية من هذا النوع بانتظارها ، وعليها أن تعود في نفس الليلة الى تشيلي .

. . . كانت الحركة على الطريق تتعثر باستمرار بسبب أعمال الاصلاح . وكانت الاشارات والمنعطفات المختلفة تجعل السائق يضيع . كنت وفرانكي نعرف الطريق جيدا الى المطار القديم «لوس ـ سيريلوس» ، وكان علينا الوصول الى «بودا أويل» وفي النهاية ضللنا طريقنا في المنطقة الصناعية الضخمة . وكم من مرة حاولنا الخروج من هناك ، ولم نعرف أننا نسير في الاتجاه العكسي إلا بعد أن قطعنا مسافة طويلة ، والتقينا دورية مؤللة .

خرجت من السيارة واوقفت الدورية ، أما فرانكي فقد أطلق لبلاغته وفصاحته العنان ، كي لا يترك لافراد الدورية المجال للتفكير

والريبة بشأننا . فعلى جناح السرعة ألف لهم خرافة حول عقد مزعوم أتينا لتوقيعه مع وزير المواصلات ، كي نقيم في تشيلي منظومة مراقبة حركة المرور عن طريق الاقمار الصناعية . والآن يمكن لهذا العقد أن يفشل ، اذا لم نغادر الى مونتيفيديو بعد نصف ساعة . وللحال قفز أفراد الدورية إلى عربتهم ، واوعزوا لنا باقتفاء أثرهم .

وهكذا وصلنا المطار على إيقاع صفارة سيارة الشرطة وضوئها الأحمر ، وهي تنطلق بسرعة تزيد على مئة كيلو متر في الساعة .

بذلت كل جهد ممكن من أجل ضبط أعصابي وأنا اقترب من شباك مراقبة الجوازات . تفحص الموظف جواز سفري ، ثم حدق في وجهي بتمعن ، وقد جمدت لتلك النظرة ، وبعد ذلك نظر الى الصورة في جواز السفر ، ومن ثم الى وجهي ، ولكن عضلة في وجهي لم تختلج

- الى مونتيفيديو؟ سألني .

فأجبته : نعم الى تحت جناحي مامي .

- سفرا سعيدا .

كنا آخر من صعد سلم الطائرة . ولما كنت مسرعا فانني لم أع للحال إنني خطوة خطوة أكرر الطريق القديم ، حينما اضطررت للسفر الى المكسيك منذ اثني عشر عاماً . شغلنا المقعدين الاخيرين ، وهما المقعدان الوحيدان المتبقيان . وهنا تملكتني أحساسيس في غاية التناقض ، شعرت بالحزن العميق والغضب ، ومن جديد بالألم الذي لا يطاق ، ألم التشرد ، وفي الوقت نفسه بالارتياح لأن جميع المشاركين في مغامرتي خرجوا منها أحياء سالمين .

وبعد خمس دقائق ، وحين كنا نحلق فوق ثلوج جبال الأند ،

ذات اللون الوردي ، بسبب الشمس المائلة للمغيب ، أدركت انه
على الرغم من أن الاسابيع الستة المنصرمة لم تصبح الأكثر بطولة في
حياتي وهذا ما كنت آملـه في البداية ، ولكنها كانت الاكثر عزة
وفخارا ، وهذا هو المهم . نظرت الى الساعة : كانت العقارب قد
تجاوزت الخامسة بعشر دقائق . في هذه الدقائق كان بينوشيت يغادر
مكتبه برفقة حاشيته ، ويجتاز الرواق الطويل والفارغ ببطء ، وينزل
الى الطابق الأول ، عبر سلم فاخر مفروش بالسجاد ، وهو يجر وراءه
ذيل الحمار الطويل ، بطول كيلومترات عديدة . الذي علق له .

هذا الكتاب

تحت عنوان «مغامرات ميغيل ليتين» الذي زار تشيلي سرا ، نشرت صحيفة «بايس» المدريدية على مدى عشرة أيام ، قصة الكاتب الكولومبي غابريئيل غارسيا ماركيز الجديدة ، وهي قصة وثائقية تصور العملية الجريئة التي قام بها المخرج التشيلي البارز ميغيل ليتين ، الذي ألقى قفاز التحدي في وجه زمرة بينوشيت ، فقام ، وهو المضطر لأن يعيش في المهجر في اسبانيا ، بدخول تشيلي متنكرا ، وصور فلما عن حياة وطنه ، الرازح تحت نير الديكتاتورية الفاشية .

ومما لا شك فيه أن تصوير هذا الفلم في ظروف الحصار ، الذي يستمر في تشيلي منذ أكثر من ١٣ عاما /منذ أيلول ١٩٧٣/ عملية جريئة ، محفوفة بالمخاطر في كل خطوة ، سيما وأن عملية التصوير تمت تحت سمع السلطات وبصرها ، وحتى باذن منها وبالتعاون معها .

وفي صيف ١٩٨٦ كان ميغيل ليتين ينكب في استوديوهات التلفزيون الاسباني على وضع اللمسات الأخيرة على مونتاج هذا الفلم الذي يحمل اسم «عين في قلب تشيلي» ويفترض أن يكون قد عرض على الشاشة الصغيرة على أربع حلقات ، وفي أيلول الماضي بدأ

عرضه على الشاشة الكبيرة ، ويستغرق عرض هذا الفلم ساعتين* .

* أود أن أشير هنا إلى انه سبق أن نشرت ملخصا لهذا الكتاب في صحيفة «تشرين» ، ولكن يبدو أن رواية القصة بضمير المتكلم جعلتني أعتقد ـ خطأ ـ أن الكاتب نفسه ، ماركيز ، ـ هو الذي زار تشيلي مع المخرج ، فعذرا من القارىء ومن «تشرين» .

المترجم

الفهرس

كتب للمترجم

أولاً - سياسية

١ - الصهيونية بين النظرية والتطبيق . منشورات الطلائع
٢ - الصهيونية في روسيا القيصرية . منشورات وزارة الثقافة
٣ - جذور الازمة الخطيرة . منشورات وزارة الثقافة
٤ - الصهيونية في خدمة الرجعية منشورات وزارة الثقافة

ثانياً - قصص للاطفال والناشئة

١ - الاخوة الثلاثة . منشورات وزارة الثقافة
٢ - مغامرات الجرذ واليربوع منشورات وزارة الثقافة
٣ - الظلف الفضي . منشورات وزارة الثقافة
٤ - مع الوحوش في اقفاصها منشورات وزارة الثقافة
٥ - مغامرات ذئب . دار طلاس
٦ - الفدائي الصغير . دار التقدم

ثالثاً - قيد الطبع

١ - دستويفسكي في مذكرات زوجته دار طلاس
٢ - العاصفة الرعدية (مسرحية) سلسلة المسرح العالمي / الكويت
٣ - وظيفة مربحة /مسرحية) سلسلة المسرح العالمي / الكويت


السعر: ٤٠ ل س